

ماجد السامرائي

الثقافة والحرية

(قراءة في فكر طه حسين)

0139944



Bibliotheca Alexandrina



الثقافة والحرية

(قراءة في فكر طه حسين)

* الثقافة والحرية قراءة في فكر طه حسين

* ماجد السامرائي

* الطبعة الأولى - ٧ / ١٩٩٦

* جميع الحقوق محفوظة للناسر

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - هاتف : ٣٣٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تلکس : ٤١٢٤١٦

فاکس : ٣٣٣٥٤٢٧

* التوزيع :

قسم التوزيع - الأهالي للنشر والتوزيع

دمشق - هاتف : ٢٢١٣٩٦٢ - ص.ب : ٩٢٢٣ - تلکس : ٤١٢٤١٦

فاکس : ٣٣٣٥٤٢٧

الثقافة والحرية

(قراءة في فكر طه حسين)

ماجد السامرائي

أما قبل.....

لو تتبعنا مسارات طه حسين، في فكره وتفكيره، لوجدناه قد مثل منذ البداية نموذج المثقف المختلف الذي يعلن احتجاجه ويقول اعتراضه على واقع «المثقف المؤ تلف»:

- فقد كان مثقفاً مختلفاً مع عصره، كما هو مثقف مختلف في عصره: نمط تفكيره وبناء توجهات ثقافية وفكرية، متخذاً هذا منحى واضحاً شديداً الخصوصية، كان بفعله، أن حفر مساراً عميقاً لثقافته في عصره - بكل ماخص به هذه الثقافة من شواغل العقل المستنير، أو ما جعل للتفكير فيها من منزلة.

- فقد شغلته الحقيقة التي راح يبحث عنها، لافي بطون كتب الأدب والتاريخ، وإنما في الفكر والتفكير الإنسانيين، بما هنالك من تطور يحكمه العقل، ويحتكم إليه في مايتخذ من مسار. فكانت مواجهته غيبية التاريخ ومواجهة حاسمة، في مستوى الفكر والتفكير عنده - في الأقل.

- وفي سعيه هذا وجد أن الحرية هي (فسحة الوجود) التي يمكن أن تجعل للعقل، في تكوينه، مكانة تاريخية متميزة، من حيث الفعل في الواقع، والتفاعل مع ما هو إنساني في هذا الواقع...

ولم يكن في منطلقه هذا إلا باحثاً عن وسائل الانتصار على التأخر العربي ، ومقترحاً لأساليب هذا الانتصار . وقد دفعه هذا البحث في اتجاهين متوازيين ومتلازمين :

- فمن جانب : هناك النقص للسلفية والتقليد ، ورفض حالات الانطواء الوثوقي ، أو الإنكفاء على الذات . . إلى جانب رفضه الأخذ بالسملات أو الاستجابة الريائية للحس العام .
- ومن جانب آخر : هناك دليل التقدم الذي كان يميل إليه ، ألا وهو الفكر الغربي الذي وجد فيه جمرة متوهجة كان أن سعة إلى اكتشافها ، ومقابلة لها ، اكتساباً وتبنيّاً لذلك الانفتاح التاريخي الذي تميّزه على الحضارة الانسانية . . .

وفي المنظور من هذا كله كان ذلك التأكيد الصريح أحياناً والضمني أحياناً أخرى ، على فعل الذات والارادة التاريخية . فيها ومن خلالها صاغ موقفه الجديد ، والمجدّد في ما اتخذ من غايات ثقافية ، أو رسم من أهداف فكرية تدرج ، جميعها في سياق عمليات التطور وحياتياً وفكرياً ، داعياً مجتمعه وعصره إلى قبولها وتبليتها ندائها . فكان ، في هذا نموذج المثقف العصري الذي استطاع أن يتخذه بما فيه كتب وبه حدّث ، بعداً نقدياً في مواجهة عديد القضايا التي شغلت العصر وإنسان العصر ، بإستجابته لها في ماتلقاه منها .

ولعل أهم وأخطر ماتلقاه عصرنا من طه حسين هو : (فريضة التفكير) . باعتبارها فريضة انسانية ، إذ جعل من الفكر ، حركة ومعطى واتجهاً فعالية ثورية تحمل تساؤلات الإنسان في مواجهة عصره . . . وخروجاً من حالة التأخر إلى مصاف الحضارة الإنسانية ، وقد توفر ، في بحثه هذا وفي مساره فيه ، على ركيزتين كانتا الدعامة الفعلية له في كثير مما كتب وحدّث :

أولاهما : رابطة متينة مؤسسة على ثقافة ووعي بالتراث العربي الإسلامي كشف بها ومن خلالها عن فهم عميق لهذا التراث واستيعاب لطاقاته المبدعة . .

وثانيهما : نظرة عصرية قائمة على ثقافة حية قادرة على تحريك الواقع والاستجابة للمطيات الحضارية الجديدة، بما لها من بنة التقدم . . .
وهكذا انطلق في نظريته الثقافية (أو مشروعته الثقافي) من موقعين، متداخلين ومتكاملين :

موقع النظر التاريخي :

في مايتصل بكل التراث والتاريخ - إذ أخذهما وتعامل معهما في مستوى «بحثي / نقدي» مشروط بأحكام العقل والاحتكام إليه .

موقع النظر المعرفي :

الذي اعتمد الفتوحات المعرفية الجديدة في ماقدم من قراءات لكل من التاريخ والتراث، ووجوه الابداع المعاصر، محركاً عصره في اتجاهات الابداع الأدبي والتأسيس الفكري الجديد .
ومن هنا تحدد توجهه نحو المستقبل في ماكان يرى للثقافة من فاق . ولم يكن هذا التوجه (والتوجيه) من طه حسين إلا محاولة لبدء لحظة تاريخية جديدة في الثقافة العربية عمل على أن يمثلها بنفسه بما اتخذ من منحى في الرؤية الفكرية، وبما أقام من اتصال حي وحيوي بعصره - وهذا، بالذات، هو ماشكل دلالات التحول، الثقافي

والفكري عنده وهذا التحول كما حدده عديد الدارسين لأدبه وفكره ،
يتعين في مأحدث من انقلاب كبير في واقع ثقافتنا المعاصرة . .
إلا أن هذا لايلغي عديد الملاحظات على بعض ماجاءت به
كتابات طه حسين ، وخصوصاً كتابه : (مستقبل الثقافة في مصر /
١٩٣٨). فهو إذ وضع ، في هذا الكتاب ، تصوراته لمستقبل مصر
الثقافي كانت الطريق التي اتخذها (واقترحها) إليه تمثلت له (أو
تمثلها) في شروطها الحضارية الجديدة قد اقتضت منه القيام ببعض
الانحرافات التاريخية ، والتأكيد على (انتماءات جغرافية) جعل لها
الأثر المهم والدور الكبير في تشكيل صورة هذا المستقبل . ولم يكن
يستهدف من هذا تحويل رؤيتنا إلى العالم ، إسهاماً في تحويل واقعنا
في هذا العالم . وهو ، في هذا ، لم يجعل من اكتشافه ، (الآخر
الغربي) جزءاً مسهماً في تكوين ذاته العصرية (من موقع الحوار معه)
وإنما وجدنا هذا (الاكتشاف) يصبح (انخلاعاً) منه عن كيانه التاريخي
والحضاري - في بعده العربي الشامل - وهنا رهن تحقيق فاعلية ذاته
وفعلها ثقافياً وحضارياً ، بمدى اندماجها في هذا (الآخر - الغربي) :
رؤية وجودية تاريخية وواقعاً ثقافياً ، وصلات انسانية . وكان في هذا
كله ، مدفوعاً ، بما في نفسه من توق ، إلى التأخر الثقافي والحضاري
الذي وجد عصره العربي فيه . إذ هدته قناعاته إلى أن ذلك لا يتم له
ولعصره إلا بتحريك الفكر وعناصر التفكير ، ومقاومة كل سكونية ،
منطلقاً من حقيق الله رآها رؤيا العقل وآمن بها ، وهي : أن الفكر حركة
لا تنقطع ولا تتوقف ، وينبغي أن يكون عملنا عملاً على تجسيد
نموذجه ، الحي الحر والحركي ، في الواقع .
وإذا كان هذا الكتاب ، بمباحثه التي توفرت على جوانب متعددة

من فكر الرجل ، لا يدعي الإحاطة الشاملة بفكره ، مواقف ومقاصد ، فإنه في الوقت ذاته ، لا ينفي عن نفسه كونه محاولة في سبيل قراءة ثانية لفكر الرجل تنتظم ، أساسيات ، في أكثر من قضية :

- فهي قراءة لاتستلم لحالة الانبهار الذي وقعت فيه بعض القراءات لفكر طه حسين وموقعه الفكري في عصره وإنما تحاول ، وتعمل في إطار هذه المحاولة ، أن تأخذ نفسها بأساسين من أساسيات القراءة ، هما :

- الموضوعية في التعامل مع ماهو فكري . .
- والنظرة النقدية إلى مايرسم ، أو يقترح من توجهات .
وبذلك فنحن ، هنا ، إنما نناقش مفهومات ، فنختلف معه (وقد ننق) في النتائج وما تختط .

- وهي قراءة فرضتها ، أو أوجبتها التحديات الثقافية والفكرية التي نواجهها اليوم ، واخصها التحديات التي تواجهها الثقافة القومية والفكر القومي العربي ، فالثورة الفكرية التي كان ان تبني مبادئها طه حسين ، كانت وستظل من الممكنات التي على فكرنا العربي أن يحافظ على سياقاتها المبدئية ، وإن كان التأكيد ينبغي أن ينصب على ضرورة التجذر أكثر ، وأعمق ، في الواقع العربي ببعديه التاريخ - الحضاري ، والثقافي - القومي ، من منظور يرى الأمة في كلية وجودها : انسانياً وتاريخياً وحضارياً وثقافياً .

- وهي ، أيضاً ، قراءة تتابع تطورات فكر الرجل من منظور يزعم الوضوح ، فإن وجدناها تقوم على الاختلاف في أكثر من موقف واتجاه ، فإن شيئاً غير قليل من هذا الاختلاف هو نصينا مما أخذناه عن طه حسين نفسه فنحن في هذا الكتاب ، نتابع فكره وتفكيره

بالنظر إلى المرتكزات التي قام عليها ، وتعيين المبادئ التي أخذ بها - وهي مرتكزات ومبادئ بقدر ما طرح وأثارت تساؤلات ومساائل في حاضر ثقافتنا العربية ، فإنها وجهت بالاعتراضات .
وبعد

فهذه الصفحات كتبت موضوعاتها مستقلة بعضها عن البعض الآخر ، الأمر الذي جعل فكرة ما أوقضية من القضايا تتكرر هنا وهناك على نحو أو آخر ، ولا نجد من هذا ضير مادامت الغاية مما كتبناه تنصب على الحواتر مع فكر طه حسين ، وقراءته بعيداً عن كل توثيق فكري أو ثقافي . فهو بما مثل من تجربة تاريخية في ثقافة عصرنا ، ليس بمقدور أحد انكار دور أو الغرض من أهميته في ثقافة عصره ، إنها تجربة ينبغي أن تعلمنا ، أو نتعلم منها كيفية اتخاذ سبيل الثورة والتجديد على كل امثال وتقليد . لنكون ، بذلك ، أوفياء لفكر عصرنا ، وأقرب إلى طه حسين ، المفكر والمثقف العصري ، وقد كان درسه الأول الذي أخذته الأجيال عنه هو: درس الاختلاف والثورة على امثالات الاتلاف .

ماجد السامرائي

مشروع طه حسين الثقافي

حين وقفت أمام طه حسين وجدت نفسي أمام اتساع متماد لانجازاته وماكتب، غير أن هذا لم يكن باعثاً على خوف أورهة من مواجهته، بقدر ماكان دافعاً للبحث عن «الفلسفة» التي هي في المنطوى مما كتب. وعن العال أو مجموعة العوامل التاريخية والفكرية التي حركته أو تحرك بها. فهو رجل كان قد بذل جهوداً مكثفة من أجل أن يبلغ «المنهج». . فلماذا لا يكون سبيلنا إليه «سبيلاً منهجياً»، فننظر إليه، ومن خلاله، بالمنظار الشامل؟ فهو مفكر ذو تاريخ. . وتاريخه هو هذا «العمل المعرفي» له متوزعاً على حقوله المختلفة، وإن كانت تجمععه نزعة واحدة، كانت، بدورها، قد جعلت منه ظاهرة فكرية، أدبية، تاريخية، في عصره، ومرحلته. وكانت نزعته هذه قد حركته باتجاه الأفكار التي تبناها، والتي أراد أن يتوغل بها في مسارات الكتابة كلها، وصولاً إلى «العقل» الذي كان يهيمه من مخاطبته التأثير فيه، محاولاً أن يحدث فيه ماتدعوه البنائية اليوم «تركيباً عضوياً»، فيتفاعل فيه الذاتي والحضاري. . الجديد الذي هوله والجديد الذي كان للآخر (الذي تعرف إليه أثناء فترة تحصيله العلمي في فرنسا)، فاتحاً المنافذ على «القديم»، الذي عمد إلى أن يلغي منه ثباته - ربما ليعلم العقل كيف يتحرك

باتجاه كل قديم ، فيدخله ضمن بنائه ، بديل أن يكون أسيراً له . فكان بذلك أول الخارجين على المألوف من مواضعات :

- فهو، من جانب ، زحزح ذلك الباب العملاق للتاريخ . . جاعلاً منه حركة حية ، غير بعيدة عما للحياة الجديدة من آفاق الفكر والمعرفة .
- ومن جانب آخر: كان يهيم «المنهج» في الدراسة والنظر . . .

فالذين كتبوا قبله في «تاريخ» هذا الأدب كان يحتويهم «الزمن التاريخي» لهذا الأدب ، فيعبرون بما انحدر إليهم منه مما اعتبروه ، حقائق ثابتة ، وكأنهم يتحدثون «علماً» أو «في العلم» .

أما هو فقد فرق بين «التاريخ» و«العلم» إذ رأى أن في التاريخ مقاصد ، وأهواء . . وإن كتابته - بل ومساراته نفسها - قد تعرضت لضغوط منها ما هو ذاتي - بحكم الارتهان إلى فكرة أو عقيدة - ومنها ما هو خارجي - بحكم عوامل الواقع والقوى المؤثرة فيه .

لذلك لم يجد أمامه إلا الانتقال إلى مفاهيم جديدة ، أو الأخذ بالمفاهيم الجديدة هذه - وإن كان قد بدأ فيها موسعاً لشقة الخلاف ، داخل هذا التاريخ .

وقد عمل طه حسين من خلال هذا كله على أن يغرس الوعي في النفوس ، وأن يشكل ، في المحصلة النهائية ، احساساً بعدم الرضا عن الوضع الثقافي والفكري القائم ، فأى طريق اتخذ إلى هذا التغيير الذي أراد؟

لاشك أنه انطلق من موقف تمليه مسؤولية المثقف ، كما وعها هو وأدركها ، وهي «صياغة المستقبل» الذي رآه أكثر ملاءمة لشروط مجتمعه ، أو لنقل للشروط التي أراد لمجتمعه أن يأخذ بها نفسه في مارسم له من طريق أو أراد التعبير عنه في تحولات باتجاه مارآه عصبياً .

ولكن . . . ينبغي أن لانعزل نظرتنا إلى طه حسين ، وإلى نمط تفكيره ، الذي بنى عليه أساسيات ، مشروعه الثقافي ، عن «الواقع» الذي وجد نفسه فيه ، والذي عاش تلك الجدلية الصعبة والمعقدة - أعني جدلية التجزئة والتبعية - التي تحكم بالواقع العربي في أعقاب تفكك الهيمنة العثمانية ، وانهارها في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

إن دخول الأمة العربية ماسمي بـ«العصر الحديث» كان محكوماً بهذه «الجدلية» التي تركت الكثير من الآثار السلبية في الواقع العربي .

ولكن المستغرب كثيراً هو أن نجد «مفكراً تنويرياً» مثل طه حسين يضع «مشروعه الثقافي» في سياقات جدلية كهذه ، من خلال محاولته إيجاد «صياغة معاصرة» للتفكير في إطار ثقافته التي لم ينظر إليها باعتبارها «ثقافة قومية» ، عربية الطابع ، وعربية التوجه والاهتمام ، بل كان على العكس من ذلك ، حيث نجده في كتابه : «مستقبل الثقافة في مصر» يؤكد على «غربنة مصر» وردها جغرافياً وحضارياً وثقافياً إلى «كيان مفترض» هو «الكيان المتوسطي» ، بفصلها عن نطاقها العربي ، فقد أخرجها فكرياً وجغرافياً وحضارياً ، في ماكان لها من إطار تاريخي عام ، وقد شكلت دعوة طه حسين هذه «مأزقاً فكرياً» واضحاً حفز الفكر العربي في اتجاهين :

- الاتجاه السلفي .

- والاتجاه المنهجي الجديد الذي نظر إلى الثقافة العربية باعتبارها وحدة واحدة ، وإلى المجتمع العربي في سياق فكره التاريخي ، محكماً استجابته الفاعلة في مواجهة آلية التعامل مع العالم المحيط به . وقد رفض هذا الاتجاه كل تصور خارج منظومات الفكر العربي . . . وكانت دعوة هذا الاتجاه واضحة إلى موقف نقدي يتخذ من العقلانية منهجاً في النظر إلى التراث ، ويرى في هذا الموقف - مع عدم الانغلاق على ثقافة

- العصر - موقفاً يمكن أن تنتج هذه الثقافة العربية الجديدة التي تقوم على الرؤية المستقبلية ، وكل رؤية مستقبلية إنما تأخذ الحاضر باعتبارها .
- ولا شك أن المفكرين العرب النهضويين ، ومن خلال وعيهم بالمتغيرات الكبيرة التي كان يمر بها العالم من حولهم ، والتي كانت تندفع إليهم - أو بسبيلها إلى الاندفاع إليهم في شكل «موجات استعمارية» كان أن التفتوا إلى واقعهم الذي وجدوه واقعاً يتطلب إحداث تغييرات كلية في هياكله العامة فمن أين الطريق؟ .
- لقد كان المجتمع متخلفاً ، منطوياً في «منظومات» عقلية الانحطاط . فلا بد ، أولاً ، من بلورة فكر عربي ينهض على أسس مغايرة لما هو قائم في الواقع . وصولاً إلى الوعي المجتمعي لتحريكه باتجاه «المغايرة» لواقعه «والتغيير» لهذا الواقع .
- وثانياً لا بد من أن يكون مشروعهم هذا «نهضوياً حضارياً» يهدف إلى وضع أمتهم ، ذات التاريخ والحضارة والرسالة ، في موقع مناسب على خريطة العالم المعاصر الذي كان يمر بتغييرات كبيرة وتحولات متعظيمة . . وهي تغييرات وتحولات تهدد أمتهم في وجودها وفي كيانها الحضاري ، وفي شخصيتها الثقافية القومية .
- وهكذا تركز «المشروع الحضاري النهضوي» في جملة أهداف ، كان عمل النهضويين العرب ، منذ منتصف القرن الماضي ، قد بدأ يصب فيها .
- لقد كانت المطالب الأساسية للحركة النهضوية العربية ، منذ أن بدأت في القرن الماضي ، تحقيقاً للمشروع الحضاري العربي تتمثل في :
- ١ - وحدة الأمة العربية ، في إطارها القومي ، مواجهة لحالات التجزئة

القطرية والتشردم . . وتصدياً لأفكار التمزق (طائفية كانت ، أم كيانية
إثنية ، أم قبلية متخلفة) .

٢ - الحرية والديمقراطية باعتبارها حالتين لقيام كيان سليم يواجه حالات
الاستبداد . . وقد ربطتهما بمفهوم «العدالة الاجتماعية» الذي يواجه
حالات الظلم ودافع الاستغلال ، طبقياً كان أم اقتصادياً .

٣ - إقامة كيان اقتصادي عربي ، أو ماتدعوه الأدبيات الحديثة : «التنمية
المستقلة» مواجهة للوضع المتخلف ، وخروجاً من دائرة «سيطرة
الآخر» .

٤ - التأكيد على فكرة الاستغلال ، بمعناه الشامل ، وتأكيد مسارات هذا
الاستغلال في حدود المصلحة الوطنية والاطار القومي العربي . وهي
تنبعث من توجهين . أوارتسمت فيهما : مواجهة الاستعمار الخارجي
الذي مثل أعنف أشكال الهيمنة وأفساها على واقع الأمة العربية
وتأكيد «الكيان المستقل» وبعيداً عن التأثيرات الخارجية التي يمكن
أن تقع عليه . أو تصيبه .

٥ - بناء واقع حضاري جديد يقوم على فكرتين ، أوينبع من شرطين
أساسيين : التجديد الحضاري للأمة من خلال تراثها الذي جمده
عصور الانحطاط والتخلف ، بما يظهر «كيانيتها الثقافية» .

- والتفاعل ، حضارياً وثقافياً ، مع «الآخر» ، لا من منطلق هيمنة هذا
«الآخر» أو «التبعية» له ، بل من منظور حضاري ونزوع انساني .
- فإذا وضعنا طه حسين في إطار «المشروع الحضاري النهضوي» هذا ،
ونظرنا إليه من خلاله . . ماذا نجد منه في «مشروعه الشخصي» ؟ بل
لنقل : ماذا أخذ ، وماذا نبذ ، وماهو الأساس الذي اتخذه في كلا
الموقفين ؟ .

يبدولنا طه حسين وكأنه عمد إلى «تحييد» بعض عناصر الثقافة العربية، بإخراجها، والاجتماعية والتاريخية، من نطاق التطور. مفترضاً أن العمل على بناء ثقافة جديدة (في إطار مجتمعيته المصرية) يمكن أن يتم، بالقوى الفكرية للآخر. (الغرب) التي لم يكتف منها بالمنحى المنهجي. بل باستشراف مستقبل ثقافته هو من خلاله. وكانت تغذيه في ذلك «هواجس النخبة» التي كانت تسعى إلى إثبات وجودها في واقع متغير. بل أخذ الدور الأساسي في عملية التغيير هذه.

- هذا الأمر يتصل بالأسلوب الذي أخذ به طه حسين نفسه وماكتب في هذا الإطار الذي أراده «إطاراً تأسيسياً لثقافية جديدة» وهو ما يتصل بنظرية المعرفة في جانب من أهم جوانبها:

١ - فهو لم يأخذ الظواهر بشمولها. ثم يختار المنهج الذي يقيم «القياس» عليه بل يبدو الأمر معكوساً لديه. إذ أخذ بمنهج الشك الديكارتي. وأقام تصورات على أوليات أولية من هذا المنهج عاملاً على إجراء القياس عليها.

٢ - وأنه تبنى، إن صراحة أو ضمناً، مقولات بعينها. تعرف عليها من خلال مصدرين أساسيين. هما: علم الاجتماع، وكتابات المستشرقين، حاصراً معطيات فكره وتفكيره بها، وفيها.

٣ - وإذا كان طه حسين، من خلال تبنيه هذه الرؤية المنهجية. قد عمل على الخروج على «ثبوتية» بعض المفاهيم والمصطلحات، فإن هذا الخروج لم يكن كافياً وحده لبناء نظرية معرفية بديلة. على ضرورتها وحاجة ثقافتنا العربية إليها.

- هذه النظرة قد تصل بنا إلى ما نريد تأكيده وهو أن طه حسين تراجع بالمعنى الذي أراد النهضويون العرب قبله أن يؤسسوا له وبينوه:

- ١ - فهو في موضوع «الاستنارة». الفكرية توجه غرباً ورأى نموذجاً في الغرب الثقافي والفكري.
- ٢ - أما «مشروعه الثقافي»، في مارسم من غايات وأهداف، فكان قد تحدد بقيم مجتمعية. أما في منظوره التاريخي فكان يتحرك باتجاه متعارض وحقيقة هذا التاريخ. فقد عمل على أن يغلق «العالم التاريخي» لمصر. واضعاً إياه في منحى اتجاهي لا يمثل سوى الحركة باتجاه الغرب: استلاماً لمعطى والتحاقاً بهذا المعطى (حيث لا تنتج العملية في مؤادها الأخير. سوى «التبعية»).
- ٣ - فهو حين عمد إلى قراءة الماضي قرأه ضمن توجهين:
 - أ - قرأه أدبياً - من خلال الشعر وما انعكس فيه من حياة العرب وتفكيرهم.
 - ب - أما تاريخياً فقد قرأه في ضوء «وجود مفترض» وليس على أساس محصلة التطور فيه.
- ٤ - من هنا، جاءت صياغة الاطار الفكري والثقافي للمستقبل - كما قدمها - بعيدة عن الأسئلة التي طرحها «الفكر النهضوي العربي».
- ٥ - إن تحديات المستقبل التي واجهها الفكر النهضوي بتلك الأسئلة الباحثة البانية، كان طه حسين قد جعل من إجاباته عليها «دخولاً» في عالم الآخر (الذي كان وما يزال يحمل التحديات لواقع الأمة، ولثقافتها) وانضواء داخله، ولذلك وقع في التجريد، من جهة . . وفي «التعسف المنهجي» من جهة ثانية.
- وكما واجه طه حسين الفكر النهضوي العربي بتحديات فكرية ومنهجية، واجهته، هو الآخر، تحديات فكرية ومنهجية، أخذت تتبلور مع تزايد التحديات، الفكرية الثقافية والسياسية، التي يواجهها الواقع العربي.

عصر الانتقال الحضاري

أجد من اللازم عند النظر إلى طه حسين ، في عملية دراسة واقعة الفكري . المحافظة على مايمكن أن ندعوه (يقظة نقدية) . . فهي (يقظة) لازمة في دراسة مفكر مثله . . ومن شأن مثل هذه اليقظة ، أيضاً ، أن تساعدنا على تبين المسار الذي اتخذه في فكره وتفكيره . . وفي الوقت نفسه فإنها تضعنا في مواجهة واضحة للتساؤلات التي طرحتها المرحلة ، و(الإجابات) التي قدمتها - كجزء من (المشروع الثقافي) الذي جاء من طه حسين وبعض من مجاليه .

وإذا كان مثل هذا الموقف يضع أمامنا مجموعة من التساؤلات . . فإن الإجابة عنها - في نطاق ما يكون لها من حقائق - كانت قد استدعت (وجوهاً مغايرة) من التجديد في الثقافة والفكر ، نستدل عليها من أعمال مفكرين آخرين مثلوا ، بما كان لهم من أطروحات ، (البديل الثقافي) ولعل أبرز هذه التساؤلات تلك المتصلة بما هو معرفي ، حيث أحكمها طه حسين باتجاهين معاً .

- فمن جهة أقام (معرفة مغايرة) بما هو تراثي - عربي ، دارساً إياه في ضوء منهجي يحتكم إلى (العقل) أكثر من الأخذ (بمسلمات التفكير) .

من جهة أخرى أقام (صلة معرفية) من ثقافة الآخر (الغرب) بكثير من التسليم لمنطق هذه الثقافة وأساسيات التفكير فيها . وقد بلغ به هذا التسليم حد أن دعا عصره إلى الأخذ بما لها، من غير تمييز لحدود (الشخصية القومية) التي انعدمت في ملامحها في تفكير طه حسين .

وكان هذا التوجه في مانستطيع اعتباره (فترة حرجة) من التاريخ المعاصر: فهي فترة كانت فيها علاقة الغرب بالشرق علاقة قائمة على أساس (القوة والضعف) و(التقدم والتخلف) لذلك قامت العلاقة على أساس المفهوم الاستعماري الذي أشاع روح الهيمنة - هيمنة الغرب على الشرق - وامتد بها، تحقيقاً، في ماعرف بالوجود الاستعماري .

فماذا فعل طه حسين في مواجهة هذا كله، وأمام هذا كله؟

كانت الفكرة المرافقة لهذا - في مائخذ طه حسين من مسارات في الكتابة وفي إشاعة الأفكار - هي تجريد العلاقة بالغرب من طابعها الاستعماري، ليصرفها إلى ماهو ثقافي . وماهو حضاري متقدم في مايقرب بها من أن تكون (علاقة توطؤية) ذات مسار خفي، ومحكم، في الوقت ذاته، بين (واقع متغلب) (يمثله الغرب) و(واقع مغلوب) (يمثله المجتمع العربي إبان تلك الفترة من حياته) .

وإذا كانت الثقافة، بصيغتها المتقدمة وصورتها الأكثر تطوراً، معرفياً ومنهجياً، قد مثلت شرطاً لازماً لحياة المجتمع العربي المتطلع إلى التطور، والمحاول الأخذ بأسباب النهضة . فإن التوجه إليها كان ينبغي أن يكون مدعاة لوعي الذات بنفسها، لالنفى الذات في الآخر - كما أراد طه حسين في بعض أطروحاته، حيث استوعبه تراث الثقافة الغربية . فاتخذ منه (قاعدة انطلاق) لمجتمعه في تأسيس ثقافته الجديدة التي لم تكن - من حيث الأساس الذي أراد لها أن تقوم عليه والتوجه الذي تتخذه - أكثر من ثقافة

عربية بتفكير غربي ، فهي ، في مؤداها الأخير . (ثقافة استغراب) وإن كان موضوعها عربياً .

هنا ، في هذا الاطار ، قد ينصرف الذهن إلى التفكير بأن طه حسين يسير ضمن سباق منظور (الهيمنة الأوروبية) على الواقع العربي - وهي هيمنة أشاعها ومهد الطريق إليها (الاستشراق الغربي) - وذلك من خلال ماعمد إليه من إشباع الواقع الثقافي بالنموذج الغربي . . .

- فهو، إن يكن قد أقام العلاقة بالثقافة الغربية على أساس (التوازي) منها . ولم يكن هذا التوازي ليمثل (توازي ثقافتين) . . بل هو توازي فكر الرجل (طه حسين) مع ثقافة الآخر، مع نفى لجميع الخصوصيات الحضارية القومية (التي لم يكن لها أي بعد في تفكيره) .

- وكان هذا التوجه ، بصيغة من صيغ التفكير والتوجه ، مناقضاً لما هو مجتمعي عربي (بصيغته القومية) في مرحلة كانت المنطقة العربية فيها تتحرك للتحرر من (هيمنة الغرب) الذي بسط ظله الاستعماري عليها ، وتعمل على تحقيق استقلالها . وكان هذا التحرك الذي ظهر إلى الوجود في صيغ تنظيمية . وحركات فكرية وسياسية ، مدعاة لخشية (المحورية الغربية) من تصدع وجودها على الأرض العربية . . فإذا بنموذج من الفكر والتفكير يمتد بظله باسطاً إياه على هذا الواقع ، يمثلاً به (نسقاً آخر) من التوجه و(البناء) محاولاً تغيير المفاهيم والتوجهات من خلال ما امتلك من (سلطة معرفية) .

- فبديل «وحدة الثقافة العربية» وجدناه يطرح (الخط الانعزالي) الذي أفصح عن نفسه - في حالة طه حسين - في تلك الدعوة (الشرق - متوسطة) التي تأكدت له في تبعية مصر لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط : اليونان والإغريق في القديم . والغرب في العصر الحدي -

حيث رأى تكون مصر الثقافي والحضاري قائماً على هذين المحورين ،
ولابد له أن ينطلق منهما في بناء ثقافة مصرية جديدة . .

- وبديل تأكيد خصائص الشخصية الثقافية العربية جرى وضع هذه
الشخصية في قوالب وتنميطات سكونية من شأنها الحد من عطائها،
وتجميد الاهتمام بها . . أو، في الأقل، وضعها في اطار (المطلقات
التاريخية) أو النظر إليها في نطاق (يحررها) فيه من كل يقين، مقترباً بها
من (التصور الميثولوجي) - وهذا هو، بذاته، مشروع الاستشراق الغربي
الذي سلك طريقاً مزدوجاً في التعامل مع ثقافتنا العربية، يتمثل في :
- أولاً : محاولة تأكيد النظريات التي ترسم توجهات جديدة (مغايرة للواقع
الغربي في ماله من عمق تاريخي - حضاري) في تفسير (المجتمعات)
العربية .

- وثانياً : الاعتماد على (النخبة الوطنية) التي تم تكوينها في الغرب، والتي
أبدت استجابات واضحة للثقافة الغربية، فدخلت، بقدر أوبآخر، في
النسيج المحور لتفكيرها، وفي التأثير على مساراتها وماتخط فيها من
توجهات .

ولم يكن رسم (الرؤى الجديدة) من قبل هذه (النخبة الوطنية) ،
وممارسة (مشروعها الثقافي) - الذي اتخذ بعداً نقدياً - أكثر من (عملية
تراتب) للصور المنحدرة من (المشروع الأساس) الذي كان يستهدف ترتيب
علاقة ايجابية معلنة بين العقل العربي والثقافة الغربية - حتى في ظل واقع
الهيمنة الاستعمارية للغرب على الأمة العربية .

قد يقوم هنا اعتراض يقول بأن هذا (الانفتاح) على الآخر، و(تلقي)
الآخر كان ظاهرة يبررها التطلع المرتسم في الأفق العربي إلى صياغة
تقدمه، وفي محاولة ترقية معرفته، إنهاضاً لذاته الثقافية . نهوضاً بها إلى

ما يجعلها أكثر قدرة على الابداع والاضافة - وهو اعتراض نقبله ، ونأخذه في ماله من أفق معرفي - عين أن هذا التوجه ينبغي أن يكون (عنصر إضافة) لا أن يكون (بديلاً معرفياً) . . وينبغي ، أيضاً ، أن يكون (عاملاً مضافاً) يصب في مالنا من تيارات أساسية ، لا أن يكون هو (التيار الوحيد) الذي لا يقودنا إلا إلى تعميق (المنحى الاستغرابي) في ثقافتنا ، وهو منحى باتجاه الآخر (الغرب) كجزء من واقع الاستسلام لهيمنتته .

وتأسيساً على هذا الموقف ، أجد أنه لا يمكن النظر إلى كتاب (في الشعر الجاهلي) ، أو كتابه الآخر . (مستقبل الثقافة في مصر) على أنهما من فعل المصادفة المحض . إن الكتابين معاً جاءا ليعبرا عن مسار فكري ، ويجسدان رؤية لماهية الموقف الذي يحدد هذا المسار . ولعل البرهة الزمنية التي جمعتها كانت واحدة .

- فإذا كان (في الشعر الجاهلي) (١٩٢٦) قد مثل علاقة تقاطع مع الفكر والتفكير السائدين في الثقافة العربية . . . فإن (مستقبل الثقافة في مصر) (١٩٣٨) قد مثل علاقة التقاطع مع هذه الثقافة ، من جهة . . . والتشابك - امتزاجاً - مع ثقافات أخرى ، من جهة ثانية .

وإذا كان كتابه (في الشعر الجاهلي) قد مثل (المقدمة المنهجية) التي كان لها أن تبلور في تلك (البيئة الموضوعية) التي رفدتها أقلام أخرى . . . فإن (مستقبل الثقافة في مصر) جاء ليقترح هذه (البيئة) ويؤسسها على مالها من منطق وتصورات . . . وقد انجلت في هذا الكتاب بصيغتها الواضحة ، ويتكامل تبشير به ، منحى وفكراً واختطاط مسار .

- وهو في الكتابين معاً ، كان قد أعمل مبضعه باتجاهين ، كلاهما كان يقود إلى الآخر . . . وهما :

- أولاً : البحث المنهجي في قضية ثقافية ذات بعد فكري (يقيني) .

ومحاولة اعتماد (تنهيج) يتوسل (الاستقراء) وليس (التحليل) و(التطبيق).

- وثانياً: تعميق هذا المنهج من خلال رؤية تاريخية مغايرة للبيئة الثقافية والحضارية المقترحة.

فإذا كان (في الشعر الجاهلي) هو (المقدمة) التي يمهد فيها طه حسين (طريقة) في التعامل مع الثقافة العربية. في أعماق أصولها وأبعادها تاريخياً. فإن (مستقبل الثقافة في مصر) هو (الخطوة الأولى) على طريق وضع المقومات الأساسية للثقافة الحديثة التي حاول - أو عمل على أن يفصح عنها بالجهدين: المنهجي والنظري - من موقع (الرؤية التاريخية) ليس أبعد..

وفي مثل هذا المسار الذي اتخذته طه حسين.. وحدد بنفسه - أو حدد نفسه به - نواجه:

- أولاً: تبايناً بنيوياً مع الثقافة العربية- تمثل في انتزاع مصر منها، وفصلها ثقافياً من مكوناتها.

وثانياً نواجه - أو نواجهه باعتراض آخر يتصل بالبعد الحضاري. والخصوصية الحضارية التي عمد طه حسين إلى (نفيها) من مشروعه هذا، ليؤسس (ثقافته) ضمن (كيان دخیل) من خلال (مصر المتوسطة) ثقافة وأصولاً حضارية وامتداداً جغرافياً.. وليس (مصر العربية).. بما لها من تكوين ثقافي وحضاري وانتماء تاريخي إلى روح الأمة العربية وجوهر حقيقتها.

ولعل الغريب، في الأمرين معاً، أنه لم يطرح أية إجابة عن الأسئلة المنبثقة عن مشكلات التخلف والتقدم في الثقافة العربية... بل سار بهذه (الثقافة) في اتجاه أكثر بعداً عن واقعها، وقدمها لنا بصيغة (بنى ذهنية)

وأخرى (تاريخية) بمنطق التسليم وليس بمنطق الحقيقة . . فأحكمها بالرجوع بها إلى (أصولها) . تلك الأصول التي أراد أن يوجد منها (تطابقاً نسقياً) يمتد بامتداد رؤيته التاريخية البحتة . . مهملاً النظر إلى العلاقة الفعلية لهذه الثقافة بما لها من واقع تنتمي إليه ، وتصدر عنه . . وكأنه أراد بذلك تحقيق (الاستقلالية الكلية للثقافة المصرية - بمنظوره الاقليمي - عن الثقافة العربية) . .

فهل كان طه حسين ، بذلك ، يتعالى على (تاريخه الأصل) و(ثقافته الأصل) بما لهما من موضوعية الوجود؟

لأنريد القطع هنا بجواب حاسم . . ولكننا نقول ، بصيغة أخرى تجيب على التساؤل نفسه : إن طه حسين كان (مفكراً تبسيطياً) في ما اتخذ من منهج ، و(الاميكانيكياً) في ما اقترح (لثقافته) من (مسارات مغايرة) . ودليلنا على هذا هو نفيه كل شكل من أشكال الوعي الاجتماعي ، ذلك الوعي الذي يعبر عن (علاقة تفاعل) أبعد ما تكون عن الميكانيكية التي تعامل بها مع الثقافة والواقع وبذاتية ارادية . فكان شأنه في هذا شأن من يقترح (فكراً خارجياً) - وقد اقترحه فعلاً - على بنية أخرى ، عامداً إلى ربطه بنسيج من (العلاقات) تصورها من خلال نظرتة التاريخية المستوية ، ومن موقع النظر إلى وحدة التفكير (الشرق - متوسطي) . . والحضارة الشرق - متوسطة وماأفرزته من ثقافة .

إذا كان هذا يصرف الذهن إلى أن طه حسين لم يصف شيئاً إلى ثقافتنا المعاصرة ، وأنه لم يكن ، في ما قدمه ، أكثر من (إعادة انتاج) لأفكار الاستشراق - وهو رأي لايجانب الصواب في بعض من تفصيلاته - فإنه لا بد من استدراك في القول . ففي مثل هذه النظرة - اذا ماوضعناها في إطار

التعميم الكلي والشامل - كثير من الظلم للرجل في ما كان له . إلى جانب ما قد تنطوي عليه من إلغاء ضمني لشخصيته الفكرية والثقافية .
فطه حسن . في حقيقة الأمر ، كان على وعي غيريسير بماهية الثقافة ، وبحقيقة التكوين الحضاري الذي تكون عليه - أو ينبغي أن تكون عليه أمة من الأمم في فترة من فترات نهوضها وتقدمها - أوحى إذا ما أريد لها ذلك . فهو ، في ما تبع من منهج ، وما أقامه من رؤية ، كان يريد لثقافة عصره أن ترتقي إلى ما تدعوه (المعاصرة الحضارية) . . وكان يدرك أن ذلك لا يتم إلا عن طريقين معاً :

١ - إغناء الثقافة .

٢ - الإغناء بالثقافة .

فإذا كان إغناء الثقافة لا يتم بالنقل والتمثل ، بل بالمشاركة في الاكتشاف ، والجهد في العمل المتقضي ، والمبادرة الفردية على مستوى الفكر والتحليل (كمال أبوديب : جدلية الخفاء والتجلي - ص ٢١) فإن طه حسين كان قد عمل في الاتجاهين : - فمن جهة كان النقل ، والتمثل أساساً في ما تلقاه من الثقافة الغربية ، وسعى إلى أن (يعكسه) بما كان له من مستويات الاستيعاب والتوجه .

- من جهة أخرى كانت محاولة الاكتشاف هذه - وإن بحدود محدودة برؤية الآخر - ولكن معها كان هناك جهد استقصائي . ومبادرة فردية ، على بعض من مستويات التحليل .

إن ما هدف إليه طه حسين من عمله في الحقل الثقافي والفكري . ومن محاولة إشاعة مفهومه للثقافة (الذي هو مفهوم بخرج بها من إطارها القديم ويضعها في سياق فاعلية جديدة) هو تأكيد وظيفتها - وإن بحدود محدودة - وقدرتها على الكشف والإثراء .

فكان إذا ما درس الشعر عمل على اغناء ايحاءاته في الذات المتلقية ،
وإذا ما تحدث عن الفكر في ماله من حركة تاريخية ، عمد إلى الكشف عما
يتحول بالانسانية والعقل الانساني من مستوى إلى آخر . وهكذا .

غير أن مانجده ، في النهاية ، هو أن ماانشغل به طه حسين ، فكرياً ،
كان قد تركز على محاولة تأسيس (منهج نظري) يرى من خلاله إلى حركة
الثقافة والفكر ، بما لهما من آفاق ، ويدرس على هديه معطيات ثقافتنا ، في
القديم والحديث ، - جاعلاً منه مساراً لطريق أراد للغد الثقافي أن يأخذ نفسه
به - وقد بدا له ذلك ضرورياً وأساسياً .

ولعل هذا هو مايجعلنا نرى طه حسين ، بفكره وماحمل من (مشروع
ثقافي) إلى عصره يمثل مرحلة انتقال في الثقافة العربية والعقل العربي
ستكون لها تأثيراتها التي طبعت معيارياً ، وهي قيمة رآها في (صورة الحياة)
فالأدب عنده يجب أن يكون صورة الحياة وبين الناس الذين يجب أن
يتخذوه مرآة يرون فيها أنفسهم وحياته كما هي ، أو كما يحبون أن تكون ، أو
كما يكرهون أن تكون .) (من لغو الصيف - بيروت ١٩٥٩ ص ٧٠) .

وانطلاقاً من روح (عصر الانتقال) هذا ، كانت معركة طه حسين ،
التي كانت معركة بين وعيين قائمين على أساس من التعارض .

- وعي ينغلق على نفسه ، ويتمثل نفسه في بعض مما له من (ذات) ثقافية ،
وحضارية - تاريخية ، من غير أن يخرج بهذه الذات إلى ماله من (فضاء
المعرفة) - حتى ماكان منها مؤسساً على (ماهو تراثي) .

- ووعي متفتح على تراثه من جانب ، وعلى الآخر من الجانب الثاني - في
سياق وضع فكري مرتبط ، أساساً ، بفكرة التنوير ، ومستهدياً بامتدادات
(عصر الأنوار) ، كما تعرف إليه عبر الثقافة الفرنسية التي كانت قد أثرت

عليه تأثيراً واضحاً ، حتى كانت بعض من أهم آرائه ، وأبرز توجهاته ، في مجالات الثقافة والفكر ، بمثابة (إعادة انتاج) لها . .

غير أن سقطة طه حسين الكبيرة كانت في دعوته ، في كثير من الحالات ، إلى اتباع (طريق المماثلة) الذي يعني ، في مايعنيه ، الاتباع - الذي هو نقيض طريق (تجاوب السياقات) بين مالنا في ثقافتنا ومعطيات أدبنا وتفكيرنا ، وماينحدر إلينا من معطى (الأخر) : ثقافة ، وفكراً ، وعلماً .

لقد أراد للحياة في مجتمعه ، فكراً وتطورات فكرية وعقلية ، أن تكون صورة تنعكس عن صورة (الغرب الثقافي) - وهي صورة وجدها تنطوي على نسيج يمكن أن يشكل هذا الأساس الذي كان ينطلق منه ، ويبني عليه .

تثقيف الذاكرة الجماعية

سننظر إلى طه حسين هنا، من زاوية مايسمى في الدراسات الحديثة بعملية «تثقيف الذاكرة الجماعية» التي انطلق فيها/ وأسّس لها من خلال «التعليم» أولاً، فعمل على إشاعته في الحياة المجتمعية، مؤكداً على كونه «حقاً طبيعياً» للإنسان مثله مثل الماء والهواء.

ومن خلال «التعليم» تنم «إشاعة العلم» و«المعرفة» وبالعلم والمعرفة تتحقق «ثقافة الإنسان». الذي هو فرد في مجتمع يمكنه عن طريق رقيه العقلي. وبناء ذاته بناء مرفياً. وبتطوير أساليب تفكيره أن ينهض بالحياة المجتمعية. ويؤثر فيها انطلاقاً مما يحمل، ويتأثر هذا الذي يركز على «التعليم». لأنه هو الذي يمدّ الأرضية لذلك كله ويمهّد له سبيل التحقق. وقد اتخذ طه حسين مساره الواضح في هذا الاتجاه الذي وجد نفسه

فيه أمام حقيقتين / أو وجد «واقع التوجه» الذي اتخذته يصطدم بهما. - أولاهما: ذلك «الفراغ التاريخي». في الثقافة الفعلية. الذي عاشته الأمة العربية في أعقاب «الاحتلال العثماني». ووجدت نفسها متطلعة إلى أن تملأه في أعقاب الحرب العالمية الأولى. نافضة عن عقلها تلك الاتجاهات والتوجهات التي ركزتها «السلفية» و«الحياة التقليدية» في

الفكر. وحاولت أن تجعل «عقل الأمة» راكداً فيها، مستنفراً عند محدّداتها - بحيث لا يستطيع النهوض أو الإضافة. فكانت «ثورة العقل» في هذه الحقبة من أجلى مظاهر الرفض لما كان والتأسيس لحياة عقلية جديدة. والبناء على نموذج يكفل تحقيق النهضة في ماللأمة من مستقبل.

- وثانيتهما: حالة «التعويض» الثقافي / التاريخي التي حملها «الغرب الاستعماري» إلى المنطقة، وعمل من خلالها على / وفي نطاق مانهعوه بـ«تثقيف الذاكرة الجماعية» بما هو، في ظاهره، علوم ومعارف حديثة. بينما هو، في واقعه الفعلي، إنشاء وتكوين لما يحقق «استعمار العقل» سبيلاً لاستعمار الواقع، وتحقيقاً لامتداده في مجالات الحياة كافة.

في مثل هذا الواقع بطرفيه كان طه حسين، الذي وجد نفسه أول ماوجدها واقعاً تحت ضغط الماضي، يستجيب لدواعي الفكر والعمل كما عرفها وخبرها تجربة. . ولم يكن أمامه، بداية، إلا دراسة هذا «الماضي». في صورته الأدبية. وتحليله تحليلاً بعيداً عن كل تقليدية في الفكر والنظر. . بل من خلال تحرير هذا «الماضي» من «ماضويته» التي كانت تسدّ كل أفق آخر أمامه، فانطلق في ذلك من «حاضر المعرفة». وكانت عودته إلى ذلك الماضي عملاً منه على تغيير الحاضر. وتغيير النظرة التي تسود هذا الحاضر إلى كل من الماضي والمستقبل، فعمد، من البداية، إلى أن يبيّن مانهعوه اليوم بـ«المجتمع المعرفي». وبما أن التحول يكون، أولاً، في العقول والأذهان، ومنها يبدأ التخطيط للتغيير. . فإننا سنجد طه حسين يعمد إلى إحداث هذا التحول بما هو «معرفي مكتسب». فأبرز من «القيم» وأكّد من «المفاهيم» ما جعله يمثل مرحلة فكرية مهمة في التاريخ الأدبي والفكري العربي المعاصر.

كما وجد أن «عالم أمس» المتحكم بعالم اليوم . والممتد بهيمته العقلية عليه ، هو العقبة أمام تحقيق الغد المرجو فكان مقتنعاً عن معرفة وإيمان ، أن اليوم والغد بحاجة إلى فلسفة جديدة وفكر جديد يسوّغ مكتسبات الفكر المعاصر ، وينفتح على المستقبل ، وقد أدرك هذا من خلال ماتحصّل عليه من «بُعد معرفي» . وكان ينطلق من أن «فلسفة» كهذه في الحياة كما في الثقافة وبناء العقل الجديد . لا بد لها من أن تستند إلى «الشك المنهجي» - الذي اكتسبه ببعده العلمي والمعرفي من خلال «ديكارت» لينفي تلك «الوثوقية» التي أطرت الأدب والفكر والتاريخ والنظر ، معطياً «تأملاته» في الفكر والأدب والتاريخ آفاقها . فكان يحقق التواصل مع «المعرفة» بأبعادها المرتسمة في ماهو متحقق في «محيطها الأوروبي» وبآفاقها التي انفتحت له . . . كما كان يستخدم معطيات هذه «المعرفة» بما تحصل له منها . وبما قدّمت له من معطيات الفكر والتأمل ، في الأدب وتاريخه . كما في الحضارة والفكر الإنساني . جامعاً بنظرته وفي موقفه هذا الكثير من التجارب التي عاشتها الإنسانية في هذا المجال . . . بنفس الوقت الذي أدرك فيه سيرورة تطوّر الإنسان ، إنسانياً وفكرياً - وهو إدراك كان تأسيسه البدئي عنده قد تم من خلال «ابن خلدون» .

وإذا كان «واقعه» الاجتماعي هو ما عناه بدرجة أحصّ ، ثقافياً وحضارياً . فذلك لأنه وجد نفسه يجتاز به / ومن خلاله مرحلة اندفاع طبيعي لإرساء الأسس الواضحة لثقافة جديدة - فالمستقبل لا يكون عنده إلا بخلق جديد وفكر جديد - إذا أردنا تحقيق وعي جديد وتكوين جديد للذات . في علاقتنا بما هو إنساني في شمول تكوينه وعمق معناه - في كل ما يحصل بالثقافة والفكر أو ينبثق عمّا لهما من محيط حضاري .

وهنا أجدني أتوقف عند فكرة يطرحها المفكر المغربي محمد عزيز

الحبابي . وهو يرى أن الإنسان «يُكوّن بنفسه معرفة عن نفسه . يعرف نفسه بالفعل الذي يمارسه وهو يبحث عن ذاته . إنه يعاني وجوده هذه التجربة الذاتية دليل على التعرّف المعرفي ، فحينما يلاحظ الإنسان أن هناك واقعاً أكبر وأهم من واقعه الخاص يكشف نفسه يشبّتها كحضور يقيني في العالم ذاك اليقين يجبره على أن يكون ملتزماً في الطبيعة»^(١) . فهي «الفكرة التي يمكن أن نأخذ طه حسين بها ومن خلالها في ما كان له من «حياة فكر» و«مسارات عمل» فكري اعتمد «الإزاحة» و«التأسيس» أكثر من اعتماده سواهما . . . بفعل رفضه ذلك «الارتباط الوثوقي» بالماضي - ربما من خلال / أو بفعل إدراكه الذي لم يعرب عنه بالوضوح الذي أعربت فيه «الفلسفة المادية» عنه) : أن كل إنسان إنما يصنع تاريخه الخاص في واقعه . داخل العالم الواقع ولعل هذا هو «المدى الاستراتيجي» الأبعد والأعمق لفكر طه حسين وتفكيره .

وإذا كنا نجد طه حسين ، في حياته العقلية ومساره الفكري فيها . لم يضع «الأنأ» (أنأه) في مواجهة . «الآخر» فلأنه في أفضل حالاته - رؤية وموقفاً - كان يعمل ويحرص من خلال عمله هذا على «تسيير الأنأ» في ما يُعتبر «واقع تواز» مع «الآخر» - والذي يمكن أن نعدّه توازي التقليد الخفيّ (أو المضمّن) ، وهو ، في أفضل حالاته ، رغبة تماه مع هذا «الآخر» . إن «الأنأ الوثوقي» التي رفضها طه حسين بالنسبة لتراثه العربي ، وجدناه يقع إلى أختها في موقفه من تراث الفكر الغربي . إن رفضه هذا لم يضع «أنأه» في خضم واقعها - كما أراد ذلك ، وكما تعرّف إلى هذه «الإرادة» في أخريات سنوات حياة الشيخ محمد عبده قبل عزله عن «الأزهر» وبعد عزله حتى وفاته - وإنما حاول «تفسير» هذا الواقع بالنسبة إلى الماضي . وقياساً بالرجعة إليه جاعلاً من «النص» واقعاً أساسياً ومرجعاً وهو إذ رفض النقل

عن «تراثه» أو الاحتكام إليه في كثير من المسائل (عدا ما جاء في كتابه «في الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) بوجه خاص) لم يفعل الشيء ذاته مع «تراث الآخر». لقد رفض «السلفية» فوقع إلى «العلمانية» بكل ما أملت عليه. فكسراً وموقفاً. صراعاً بين طرفين - هما التشكيل الفعلي لذاته، طرف الرفض . . . وطرف القبول.

إلا أن طه حسين في موقفه هذا. كان أن عاش نوعاً من التمزق الذاتي في ماتبني / أورسم لنفسه من توجه:

- فهو من جانب، أراد وضع نظرية لإعادة بناء النظرة إلى التراث العربي يصبح هذا التراث معها قادراً على «دخول العصر» بوجه جديد. غير وجهه التقليدي الذي تعرفنا إليه من خلال ما قدم به من دراسات كانت قاصرة عن النفاذ إلى ما له من عمق وجوهر.
- ولكنه من جانب آخر يبحث عنه «تكوين جديد» و«صياغة معاصرة» لكل من الفكر والثقافة من خلال ما هو غربي - أوروبي، ثقافة تفرز معطيات وفكراً يقدم مفهومات - بما تيسر له من «معرفة» من كل من هذه الثقافة وهذا الفكر.

فإذا كانت «المعاصرة» و«التحديث» يقفان وراء الرؤية التي عمل طه حسين. بها ومن خلالها، على بناء منظور جديد للتراث العربي (في ما اتخذ فيه من موقف نقدي) فإنه ساعد في إبراز «واقع التحديث» الذي أراده / أو كان له من خلال «قراءته الآخر». فهو في عمله وقع إلى حالة أقرب ما تكون إلى «حركة النول» بين نقطتي جذب. هما: التجديد، والترديد. وقد وضع هذا كله في ما احتكم إليه من «نظرة إقليمية» قامت عنده في أوضح حالاتها. على التمرکز على الذات - بالحدوحد ونظرية «المركزية

الأوروبية» جاعلاً «مصر» هي «المركز». تبني ثقافتها على ما أراد لها من مستقبل لتشع «على جيرانها من العرب» (كذا).

غير أن «وعي» طه حسين الفكري وبما هو فكري . لم ينبن كما هو الحال مع العقل الغربي - على ما هو نظري - أو بما هو نظري - فقط . . . وإنما كان إلى جانبه هذا «الحس الأدبي» الذي كثيراً ما نجده يقترب به من «روح الإبداع». حقيقة وجوهراً - وإن كان عمله الأكبر قد انصبَّ على إيجاد عالم يحكمه الفكر. وكما هو الحال في الفكر العربي الذي تعرّف إليه «العقل يشرّع للواقع. والواقع ينضوي تحت الفكر» - والمظهر البارز لهذا عنده هو ما عكسه أولاً، في كتابه: «قادة الفكر» (١٩٢٥). ثم في كتابه الآخر: «مستقبل الثقافة في مصر» (١٩٣٨) - إذ يضع «التنظير» فيهما في مستوى «العقل» و«ما هو عقلي» عند «التشرع للواقع».

وسنلاحظ هنا أن طه حسين كان أن «أعدم» مراجعه الأساسية في معظم ما كتب وكأنه أراد بذلك أن يحيل الفكرة كل فكرة إلى «ذاته»، وليس إلى سواها فهو كما توحى بذلك كتاباته يقدم من نفسه وما يكتب ما يراه فيه قارئه «بنية متكوّنة»: وليس ما يقول إلا حصيلة هذا التكوين ومحصلته. وبه / ومن خلاله كان يعمل على إحداث التحوّل في الكتابة وفي أسلوب التفكير في عصره. وذلك بخروج الكلمة العربية / أو بإخراجها من «واقعها القديم» إلى «فضائها الجديد». ومن «سلطة ما هو تراثي» وهيمنة ما هو «تفكير تراثي» إلى «واقع تحديتي». في محاولة منه لجعل «الذاتية العربية» تدخل عصرها في نطاق اللغة والتفكير وأسلوب التعبير. فتعي تحويلات هذا العصر، وتكن قادرة على فهمها واستيعابها، وإنتاج نفسها من خلالها. لذلك «نجدّه وقد عمّد، أول ما عمّد، إلى إحلال «التصورات الجديدة» محل «القديمة» في الأدب كما في الحياة. . . مجسّراً الفجوة بين

«الأنبا» في تاريخيتها و«تصوره الحاضر» للإنسان والعالم . وقد طرح «المشروع» في بداياته، على أنه «أدبي خالص» . . إلا أن ظهور كتابه : «مستقبل الثقافة في مصر» . وقبله «قادة الفكر» - وبالتحديد كلامه في الثاني منهما على «الاسكندر المقدوني» الذي تضمن تأكيداً على «فضائل» فاتح مثله في ذلك «العصر الاستعماري» الذي صدر فيه الكتاب (١٩٢٥) . . . هذا كله ، إلى جانب إشارات منه مبثوثة في هذا الكتاب أو ذاك . جعلت «مشروع» طه حسين هذا يبدو وكأنه «غطاء» لنظريات أساسها التسليم بما هو واقع (في علاقة العرب بالغرب) الذي لم يعرفوا منه سوى وجهه الاستعماري ، أو تأكيد ما يمكن اعتباره «نظرية وثام» بين الشرق والغرب - باسم التأسيس لمعرفة جديدة والبحث عن سبل النهضة .

غير أن ما كان يجعل من كاتب مثل طه حسين يرفد واقعه بمثل ذلك لفكر المبني على رغبة تحقيق التواصل بين «روح الشرق» و«عقل الغرب» هو أنه عاد من الغرب يوم عاد في عشرينات هذا القرن مليئاً بإحساس الجدة والابتكار . . . حاسباً أن كل ما يقوله أو يأتي به يمكن أن يلقي صداه . فيضيف به رصيذاً إلى ما يعرف / ويعرفه عصره معه من ابتكار فكان على ارتباط ذاتي بذلك - و«الذات» - كما تعرفها من خلال «ديكارت» حاملة للمثال . وواضحة للفكر . . . إذ أصبحت «الذات» المتجددة بالموضوعية . النازعة إلى التجديد . هي السمة الأساسية لفكره . وقد ألقت بخصائصها على مرتسمات تفكيره . وقد امتد هذا منه مصحوباً بقدرة على «الرفض» كما هي قدرته على «القبول» . وهي «قوة» نجدها عند «أصحاب المذاهب» الذين يتحدثون إذ يتحدثون ، ويقدمون أطروحاتهم بثقة موضوعية - أو هكذا تبدو فصاحب المذهب ينتقد ويرفض . . . ويصارع . . . يهدم ليبنى البديل ، ويدافع ليؤكد ما يرى ويعتقد . وطه حسين من «أصحاب المذاهب» هؤلاء :

له الثقافة ، كما له مذهب في الحياة . . . دافع عنها جميعاً ، واختصم من أجلها ، وظل في ثباته عليها .

وينبغي أن لانهمل الإشارة هنا إلى مسألة هي : أن هذا كله كان يصدر عن الرجل . ويتم في لحظة تحوّل تاريخي بالنسبة للأمة العربية . . . سواء كانت لحظة هذا التحوّل في مايتصل بعلاقتها بذاتها الثقافية والحضارية . أو في علاقتها بالآخر (الغرب الأوروبي) الذي مثل لها وجهين مثّل أمامها بهما واقعاً . هما :

- الوجه الثقافي ، بأبعاده الحضارية .
- والوجه الاستعماري - الذي عرفته الأمة العربية بأبعاده القائمة على الاحتلال والاستغلال ، والسيطرة ، ونهب الثروة القومية للأمة ، وتسخير واقها لخدمة مصالحه . . .

ولقد أهملت أطروحات طه حسين ، الثقافية منها والفكرية موضوع الصراع والتقابل / التضاد مع هذا «الفكر الغربي» الذي هونتاج «عقلية الغزو» وروح الهيمنة» . وقد تمثّل للأمة العربية أول ماتمثّل من خلال وجود تلك «الظاهرة البشعة» على أرضها وفي محيط وجودها أعني : «الظاهرة الاستعمارية» . واكتفى بالنظر إلى الثقافة الغربية من تخوم اللقاء والالتقاء - كأنما كان عامداً - ضمناً في كثير مما كتب في هذا الاتجاه إلى «تحويل النظر» عن «الغرب ظاهرة استعمارية» وتكريس التفكير به باعتباره «ظاهرة ثقافية فكرية» - وهو ما انهمك به على مدار حياته . إذ كان يطيل «التحديق» في مرآة الآخر - وقد رأى فيه «نمطاً للتحديث» و«نموذجاً للتقدم» لا مناص لمن ينشدهما من التعلّق بهما في مالهما من أصول تجعل من الغرب مرجعاً

١ - محمد عزيز الحبابي - عالم الغد : العالم الثالث يتهم - مركز دراسات

الوحدة العربية - بيروت ١٩٩١ - ص ٢٠٧ .

سيرة عصر ثقافي بدأ بالثورة . .

لو عمدنا إلى تركيب، «السيرة الثقافية»، لطله حسين لوجدناها تتحرك ضمن تيار كان يأخذ العصر بضرورة الانتماء إليه، دون إخلال بطبيعة العلاقة القائمة بيننا وبين مالنا من تراث .

وإذا كان البعض ينسب حركة طه حسين في زحزحة ذلك «الباب العملاق» من الأفكار والمفاهيم والتوجهات التي غلبت على مرحلته ومقابلها إلى «ديكارت» وما أحدثه في فكر القرن السابع عشر الفرنسي، فإن هذا التأثير لم يكن ليتم لولا ذلك «المحرك الثقافي» الذي لنا أن نحسب له أهميته في نطاق ما كان لطله حسين من توجهات ونزعات تمرد على تلك «القيم السلفية» و«المبادئ المتحجرة» التي وجد نفسه . منذ البداية، على غير تألف معها . منطلقاً، ونظراً، ورؤية لواقع الثقافة . .

من هنا ماتحقق لـ «الكوجيتو الديكارتي» من فاعلية اللقاء مع فكر طه حسين، وإن كان في «لقائه» هذا قد ظل محافظاً على جانب كبير من تلك «النظرة التاريخية» التي تحكمتم بمنهج، وسادت بعض أحكامه (وهي نظرة تقوم على رؤية التاريخ باعتباره مساراً زمنياً متصلاً ضمن لحظة قائمة في الماضي، وأخرى في المستقبل).

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا سؤال يتصل بالأساس الذي بنى عليه طه حسين كتاباته (بل لنقل فكره) التي أراد بها تأكيد ملامح واقع أدبي وفكري جديد في واقع أراد له أن يأخذ نفسه بحركة الحياة، متجاوزاً بعض المعادلات المعيارية التي تحكم بالعقل العربي وحدث من حركته .

بدءاً، ينبغي التنبيه إلى أن طه حسين، في فكره ورؤيته النقدية، رجل ذو موقف انتقائي . بنى رؤيته على أساس من هذه الانتقائية . ولعله - وهذا ما يبرز في سياق النظرة الشاملة إلى ما كتب - رأى في هذه الانتقائية، التي اعتمدها وتبناها، أسلوباً جديداً في حياة عقلية (وأدبية بالدرجة الأساس) تكون منطلقاً لوضع «معادلة» جديدة في سياق ما لهذا، «العقل العربي» من تاريخ، ومن موروث له حكم هذا التاريخ وسلطته، فقد كان العصر الذي تكون فيه طه حسين تكوينه الأساس عصراً مساعداً على نشوء نزعتين تلازمتا في حياته وفكره :

- أولاهما: نزعة الحرية التي كان لها أن تمتد لتشمل حرية الفكر .
- وثانيتهما: النزعة المثالية التي وجد الفكر الفرنسي - حين تحقق له اللقاء معه - قد عمق تياراتها . وكان «ديكارت» - الذي أعجبه منه مبدأ الشك - قد تطور بهذه النزعة إلى ما انتسب به وفكره إلى الفينومينولوجية (الظاهراتية) .

وهكذا اخضع طه حسين فكره التاريخي لاعتبارات جديدة منحها من القوة ما اتاح له أن يتخلى عن «لغة الملاينة» التي كانت تعالج بها قضايا الفكر والتاريخ . بل لقد عمد إلى البدء بأكثرها حساسية . . وأشدها عنفاً في مواجهة التيار التقليدي في الحياة والفكر . فاستعاد الكثير من الأفكار (ديكارت في منهجه، ومن جليوت في دراسته الشعر الجاهلي) وأقحمها في صلب مآثره من تاريخ يحمل الناس من حوله نظرة تقديس له . . واضعاً

ذلك كله في سياق حركة كان يؤمل لها أن تستمر وتمتد ليكون عطاؤها غزيراً، أن يفرض في مرحلة تاريخية باعتباره استجماعاً لفكر عصره ولتفكير عصره - وهو الأساس والمنطلق لثورة العقل على واقع الجمود والتسليم . . . فكان ما أعطاه قد مثل «مضموناً مختلفاً» يخرج في كثير مما فيه . عن ذلك «الائتلاف» الذي ساد الثقافة العربية حتى مرحلته . . . وقد تضمن من القيم والنظرات ما يؤكد قدرة العقل العربي على التقديم والتمثيل، بدل الجمود والتسليم .

وهكذا تبدو لنا أهمية طه حسين في عصره ليست بالأهمية العابرة، فهو رجل جاء ليمتحن صلابة الفكر في عصره، كما امتحن صلابة نظريته هو في إطار «فكر العصر». وقد اتخذ من هذه «النظرية» فاصلاً بين مرحلتين :

- مرحلة التعميم والغيبية، بكل ماسادها من وصف جزئي، وطغيان للشكلائية، لغوية كانت أم أسلوبية بلاغية . . .
- ومرحلة التفكير بنظرية بديلة، ومن خلال نظرية لها القدرة على استيعاب الحياة بمنطق عصري، ومن خلال نظرة عصرية . . .

لقد كان طه حسين يرمي من خلال ذلك إلى وضع الثقافة العربية والفكر العربي (وما يتصل بهما من تاريخ) في دائرة التفكير المعاصر (كما تفتح على قيمه ومعاييره من خلال ما عرف) . . . وجاء بالنظريات التي تعلمها وتفحص معطياتها في «الفكر الآخر» ليخرجها من أن تكون لذاتها وبيداتها، واضعاً إياها في نطاق واقع متين، له حدوده المكانية وأبعاده الزمانية . . . وله كذلك انجازاته المعبرة عنه، الداخلة في تكوينه . . . وكان هذا، بحد ذاته، مخالفاً لطبيعة التقليد، خارجاً على كل تسليم درج عليه العقل العربي في ماسبق، توابعاً من هذا العقل مع امتدادات عصر الانحطاط .

من هنا كان طه حسين يحاول التغيير عن حدود عالم فيه من المغايرة قدر مافيه من الاستقلال . . وفيه من التفاعل مع الواقع قدر مافيه من الخروج على «قوانين» هذا الواقع التي درج عليها في سياق مادرج عليه من مسلمات ، ولكنه في الوقت ذاته ، كان عالماً ينبثق من صميم ماله من «تاريخ ذاتي» تداخلت في تكوينه عناصر عديدة ، أراد التعبير عنه ضمن حدود نظرية نقرأ التاريخ والتراث فتجد فيهما ، «إماكانت» و«حقائق» قابلة للنقض ، كما هي قابلة للتأويل أكثر من كونها «ثابت» فكرية وتاريخية احاطها البعض بصفة المقدس ، فعندما يصبح التاريخ «روايات» . . فإن هناك ما يستدعي تعليقها أو تخطيها . . نقضها أو البناء عليها من خلال وجهة نظر تحمل انطلاقة جديدة لفكر جديد يتوجه إلى واقع جديدة . ويكون رجل فكر وثقافة مثل طه حسين في منحاه هذا إنما يعمل عملاً مزدوجاً يتوجه به نحو «تحرير الواقع» و«التحرر منه» في وقت واحد . وقد كان له في توجهه هذا من «التفكير المطلق» ما استهدف تحرير الفكر العربي من التسليم بالسائد والمتواتر والمألوف ، وتخليص فكره من السكوت والثبات اللذين وصلوا بهذا الفكر إلى حالة من التجمد امتدت قروناً عديدة من هذا الزمن العربي .

وإذا كان طه حسين قد تميز بذلك البحث الشجاع عن الحقيقة التاريخية من خلال ما هو أدبي ، فلأن «الفكرة» التي انطلق منها في توجهاته ، وبنى عليها تأسيساته الثقافية (والتي انطبعت بسمات فكرية واضحة) قد ساعدته كثيراً على نبذ العديد من فرضيات الماضي (التي تميزت بطابعها الدوغماتي) .

فإلى جانب «نزعة التحرر» التي تولدت في نفس طه حسين وفكره في مرحلة مبكرة من حياته (بتأثير بعض من أساتذته الأوائل - سواء منهم من كان يعزز نزعته هذه بالسلب أم بالإيجاب في موقفه منها) ، فإن دراسته الأكاديمية

في فرنسا، وفتتحه على الحياة والفكر فيها قد حملت إليه تأثيراً مزدوجاً .
- فهي ، من جانب ، قد فتحت أمامه من آفاق التفكير وحرية الرأي ما جعلت الكثير مما كان يتخايل في نفسه وذهنه يجد «واقعه النظري» الذي يركز إليه ، فيتجاوز به حدود الحلم إلى التأسيس النظري ، أو الفكري الواضح المعالم المحدد الاتجاه . . .

- ومن جانب آخر، كانت هذه «الثقافة الجديدة» بما تفتحت عنه من آفاق رحبة للفكر والتفكير، قد أتاحت له أن يلج الكثير مما لحياتنا الثقافية من تعقيدات انحدرت إليها من موروثها، بكل ما في هذا الموروث من تناقضات حادة . فابتعد في ما كتب عن مسلك روح التمجيد التي كانت تغطي ماسبق مرحلته ، وحتى ما دخلها من امتدادات التأثير العابرة من تلك المراحل .

إن ثورة طه حسين كانت قد بدأت من منطلقين أساسيين ، متداخلين ومتكاملين :

- فهي «ثورة منهجية» في جانب منها . . .
- تتداخل بهذا المنهج - وهو الجانب الثاني فيها - نظرة تهدف إلى التحول بالواقع . وتسعى إلى تحويله ، مكونة مفهومها الذي لم يكن في بدايته (مفهوماً توفيقياً) ، بل (مفهوماً توليفياً) (وإن كان قد تحول إلى «مفهوم توفيقى» بعد أن واجهت «القوى المضادة» هذه الثورة ، قامعة فيها «ايدولوجيتها» الجديدة) . . .

وإذا كان محتماً في قضية كهذه أن يكون «الصراع» و«التناقض» بين طه حسين وعديد من أعلام جيله دافعاً لأن يكون ، وسيلة فعالة ، لنضج ثورته المنهجية هذه وتبلور تياراتها . فإنه مع طه حسين كان النقيض تماماً . فبمجرد تراجعه عن أفكاره «في الشعر الجاهلي» كان قد أسقط كل ذلك

«البناء الايديولوجي» الذي بدأ منه ، وانسرب بمصير قوله إلى التسليم (سواء بتقديمه النقيض ، أم بالتخلي عن مواصلة التيار ذاته) . .

إلا أن هذا الواقع ، في التقييم ، (الأخير له) يصل بنا إلى استنتاج مؤداه: أن طه حسين ، الأديب والمفكر ، لم يكن «ثورياً» بالمعنى الاصطلاحي لهذا المفهوم . . بفعل أكثر من عامل حاصر ثورته تلك . . وضيق عليها حدود المفهوم . . وأوقف منها المسار . .

- فأولاً : لأنه بدأ بما يمكن أن نطلق عليه «ثورة الفكر» من غير أن يمتلك مفهوماً واضحاً ودقيقاً للثورة كمفهوم ومسار ، وكواقع قابل للتحقق . . وكتائج أيضاً . .

- وثانياً : إذا كانت كل نقطة انطلاق في عملية ثورة (كالتي أراد طه حسين أن ينهض بها) تحتاج إلى برهان أوسع من البرهان الذي يتم تكوينه في اطار انطلاقتها . . فإن طه حسين قد فعل العكس تماماً . . التراجع عن نقطة الانطلاق ببرهان النقيض . . .

- وثالثاً : إن طه حسين لم يؤسس أية أرضية لمنهجه هذا ، فجاء بما يشبه المباغطة للعقل العربي المحكوم بتقاليد المتوارث الذي أراد طه حسين أن يكون متصلاً به ومنفصلاً عنه في الوقت ذاته . . مما أتاح للفكر النقيض أن يستعيد موقعه بسهولة . فهو لم يؤسس لنظرية ، بل بث (والبعض يقول: نقل) اشتاتاً من الأفكار (التي بدت لنا في صورة «نظرية») ، وقد كان من الميسور إزاحتها من قبل الفكر التقليدي الذي زج بكامل قوته في معركة كهذه هي ، من حيث الأساس والجوهر . . «معركة تقاليد» . .

لقد كان التيار المسيطر على الثقافة العربية أيام دعوة طه حسين هذه - أولنقل : أيام نشر أفكاره هذه التي تمثلت في صيغة «دعوة» - هو «التيار

التقليدي» الذي كان أدباؤه يعتقدون، وبنوع من الإيمان المترسخ، أن هذا الأدب الذي يكتبون أدب مقترن برسالة سماوية نهضت بأعباء حمل الخلاص للإنسانية جمعاء. . . وأنها في توجهها هذا، إنما تستهدي بما كان لها من منار الأمل. ولهذا كان هذا التيار تياراً تداخلت فيه النزعات الدينية بالرومانسية بالمثالية. . . إلى جانب أطراف من «الفكر الاصلاحى» الذي بدأ يتشكل في «شبه تيار» مع رواد حركة اليقظة العربية، وإن كان قد نقل. في ما اتخذ من مسارات واقعية، فكراً حياً، لم يدخل الواقع العربي من باب الرفض والتمرد على ما هو قائم ليساعد في إنشاء وتكوين ركيزة مغايرة، بل بدا من «فكرة اصلاحية» تتخذ في توجهها، ضرباً من «لغة الملاينة»، أو محاولة التلطيف. . .

فمشكلة هذا الفكر الذي تمثل في «التيار الاصلاحى» لعصر اليقظة أنه لم يبدأ بأسئلة يمكن أن نعدّها أسئلة حقيقية لنهضة فعلية - من نوع الأسئلة الحاسمة التي تقطع بيقين واقعي - بل كان يطرح الأسئلة ويحاول تقديم أجوبة. . . إلا أن كلاً من هذه الأسئلة والأجوبة كانت من ذلك الضرب الذي «يعلم التسليم» أو يصب في مجراه أكثر من «يعلم المساءلة»، ولم تكن تلك الأسئلة وجواباتها سوى «فائض أفكارهم» التي لم تكن مبنية، من حيث الأساس، على أية فلسفة. . .

وطه حسين نفسه لم يبدأ بأسئلة جوهرية. . . بل بدأ بما يمكن أن نطلق عليه محاولة «زعزعة اليقين»، بادئاً من الجذور. بينما الواقع من حوله يؤمن بالمجردات ويأخذ نفسه بالمسلمات. . .

هذا التبع للمسار الفكري لطله حسين يبلغ بنا إلى التساؤل عن الكفة التي ترجحه بها ثقافياً. فهل كان «أديباً» في ما كتب، أم «مفكراً» في ما بث وقال؟

من المؤكد ، قبل تحديد الإجابة ، أن السؤال ينطوي على شيء غير قليل من روح المغامرة ، ذلك أن طه حسين لم يكن من «أصحاب الفلسفة» قد رماكان «صاحب نظرة» رسمت لنفسها توجهاً ، وحددت مقصداً ، وانبتت فكرة - أو مجموعة أفكار - عبرت عن نفسها بصيغ تعبيرية مختلفة . فمرة جاءت في صيغة دراسة لعناصر تكوين أدبي ، وأخرى في صيغة قراءة تاريخية ، وتمثلت ثالثة في البحث عن تشكيل بنية عقلية في شخصية أدبية أو تاريخية . . وكانت رابعة في وجه من وجوه الابداع ، وكان هذا التعدد في الصوت الواحد ، أو الهم الثقافي والحضاري الواحد ، كان هو السمة الأساسية من سمات جيل بدأ بطه حسين ويعض من رعيه ، وامتد إلى سواهم من تلامذتهم ، فهما جيلان - الأساتذة وتلامذتهم - اجتماعاً على احساس متقارب كان يجمع بينهم في وجود يريدون له التميز كما يريدون التميز لأنفسهم فيه - وقد كان هذا هو اختيارهم ، كما كان هو الهم الذي يسكنهم ، فجعلوا من طاقاتهم ، الفكرية والتعبيرية ، طريقاً إليه . .

لقد رصدوا التخلف في الواقع كما في العقل ، فتوجهوا إليهما معاً مستهدفين تحريرهما من كل مايكبل مسيرة الحياة والتطور فيهما . . وكان أمامهما تراث ركن إلى الجمود ، أو انتحى به الأسلاف ناحية انعدم معها كل تأثير إيجابي لرصيده . . فأرادوا فك هذا الرصد المختوم ، واطلاقه إلى الحياة وتوظيفه في معركتها ، بنفس الوقت الذي وظفوا فيه «تراث الغير» لخدمة مشروعهم هذا . .

وكان العقل عندهم هو «مقياس المصير» . .

ولاعجب في ذلك ، فقد كانت المرحلة تمثل «منعطفاً تاريخياً» واجه فيه العقل الجديد بما له من أفكار عن التجدد ، واقعاً متخلفاً ، وقد كان السؤال الذي طرحوه على أنفسهم قبل أن يطرحوه على الواقع هو: كيف

يمكن لنا أن نبني عصرنا الجديد بما يليق بسمعة مالنا من حضارة ومن أين الطريق إلى حضارة العصر؟

وفي ضوء هذا السؤال تحدد مفهومهم للثقافة والعمل الثقافي الذي اتخذ في بداياته، منحى تربوياً ترافق مع محاولة في تغيير المفاهيم ونقض المسلمات إذ لم تكن الثقافة في مفهوم هذا الجيل وفي حياته أيضاً (شيئاً مضافاً) إلى الإنسان، بل هي (الإنسان في ذاته) بما له من تكوين، وبما فيه من أبعاد هذا الوجود.

ولأن هذا الجيل المندمج ببعضه (من حيث كيانية مشروعه الثقافي وطموحات هذا المشروع) قد بدأ التأسيس على أرض تكاد تكون بوراً، اكتشفها وألقى إليها بذاره، فإن ثقته بذاته كانت ثقة مفرطة، بحيث اندفع في طريق مغامرة لا أظن أنها كانت محسوبة العواقب بقدر ما كانت مدفوعة برغبة تحقيق النتائج التي تأثلت كالحكم في نفس هذا الجيل وفي طموحاته الثقافية والفكرية وكان الواقع كان ملكوتهم، والكلمة قوتهم الأمضى، والفكر مجال عملهم، والواقع هو أرض البناء الجديد، الذي يهدفون إعلائه.

وهكذا احسوا أن قيمتهم كجيل كامنة في فكرهم. . فإذا ما فقدوا هذا الفكر أو جردوا منه ضاعت منهم قيمتهم، ولم يصب حجرهم مرماه. وكان مهماً بالنسبة لهم أن يسلكوا الطريق. . ولهذا تعددت بالواحد منهم السبل إليه. . فبالقصة والمقالة والرأي والفكرة، والتأسيس الثقافي ومراجعة الفكر، والوقوف عند الأفكار ونقدها. . هذه جميعاً كانت السبل التي لطريق واحد كان يهمهم منها أن تكون طريقاً لغيرهم أيضاً، معهم ومن بعدهم. . .

لكن طه حسين بالذات من بين أبناء جيله كان قد وقع في شرك واقع كان، هو الآخر، أسير ماضٍ له ثقل التاريخ، ففي حين كان هو مندفعاً إلى

أمام بضوء من هدي المعرفة التي تلقى وما كان لها من أثر في حضارة عصر عاشه وتمثل تيارات الحياة فيه، وتأمل في وجود الإنسان في العمق من حركته . . . كان الواقع ، بقوة السلفية والرجعة فيه ، مشدوداً إلى وراء فهو واقع مهزوم ، وقد استمر واقع الهزيمة ، معاً بكل ما أفرزت فيه معطيات التخلف . وقد كان طه حسين يحاول أن يكون النقيض لذلك ، والثورة عليه ، من غير أن يمتلك الكثير من مقومات هذه الثورة وعناصر نجاحها .

فهل كان طه حسين قد اكتشف طريقه إلى نهضة ثقافية فعلية؟
أقول طه حسين وأعني جيلاً كان هو (العلم البارز) فيه ، وقد ارتبط اسمه بما أطلقنا عليه (النهضة الأدبية الحديثة) . . .

أستطيع هنا أن أبدأ من تلك الخلاصة التي يمكن أن تنتهي إلى تأكيدها ونحن نقرأ طه حسين ، وهي أنه حاول أن يضع عصرنا - بدءاً من مرحلته - على طريق ثقافة مبنية على الفكر ، وعلى الاعلاء من شأن العقل والتفكير واحترام معطياتهما . . وهي ثقافة متصلة بإشكالات واقع له خصوصيته التاريخية ، في الحضارة كما في التخلف ، وفي التراث كما في الدين ، وفي واقع اجتماعي وآخر تاريخي يفرضان ، من حيث الأساس ، حدوداً من التمييز غابت ببعضها في مراحل معينة واستمرت . .

ولعل المهم في مشروع طه حسين ذاك ، من حيث أساسياته ، هو أنه لم يبدأ به أو معه ، من يقينيات ثابتة . . بل كان قد بدأ من الإشكالات وخاطبها ، أو تخاطب معها بروح الشك التي اعتمدها فكره . وإذا كانت (المشروعات هي مستقبلها) فإن طه حسين بحث عن هذا المستقبل في ما يمكن أن يكون له من نتائج ايجابية كامنة في روح مشروعه الثقافة الذي بنى ، من حيث الأساس ، على مبدأ إشاعة المعرفة ، فمنها - كما رأى - يمكن (للوجود النقيض) أن يبدأ طريقه .

أسير فكرة الخروج . .

هل كان «أندريه جيد» يخاطب طه حسين - أو رجل فكر مثله - وهو يقول :

- «لتكن حياتك ثائرة مثيرة، ولا تجعلها هامدة ساكنة . . ؟» .
فحياة هذا «الرجل المفكر» التي انجذبت إلى المغامرة والتغيير،
لحزنة ذلك الباب العملاق الذي حال بين إنساننا وبين العديد من دروب
الحياة والفكر، كانت تلك الحياة قد وقفت عند كثير من المعاني الجديدة،
فرسمت لطريقها من المسارات ما يمكن أن يغني الحياة والواقع بالكثير من
دلالات التخول . لما فيه العطاء المتجدد وحيوية الفكر التي لها أن تضع
الحد الفاصل بين الحياة والسكون (أو الموت) . .
هذا فيما كان له من محصل عام .

أما إذا أردنا البحث عن الجذور، لاستقصاء مسار من أوله، فإن أماننا
«الأيام» بما سجلته من دقة الاحساس وأمانة خاطر عن تلك المراحل من
حياته، حيث الطفولة والتكوين، بجميع ما اكتنف تلك المرحلة من صراع
داخل عقل طه حسين، وبما اجتمع لهذا العقل من رؤى رافدتها ثقافة عميقة
كان لها أن تتواصل، وبالعق ذاتة، من خلال معطيات حضارتين، بما

تعرف عليه فيهما من ثقافة وبما كان له من خلالها من اهتمام إلى ينابيع الفكر. . هما: حضارة الغرب وحضارة الشرق - وإن كان قد امتلأ بأنوار الأولى محاولاً أن يرفد بأنوارها حاضر الثانية. ولم يكن، وهو في مساره هذا، ليهداً إلى يقين غير يقين البحث الدائم والحرية التي ملأت حياته وفكره، فأراد أن يشبع الحياة من حوله. .

غير أن المسار قد شطّ بطله حسين نفسه حين دعا المصريين إلى أن يدرسوا تاريخهم. . ويفهموا أن مصر كانت دوماً جزءاً من أوروبا. . . فهو، على قبوله بتقسيم العالم إلى شرق وغرب، يعتقد جازماً أن مصر تنتمي إلى الغرب لا إلى الشرق. فالتميز الجوهري، في نظره، ينجم عن جغرافية الروح لا عن جغرافيا الطبيعة، إذ إن في العالم مدينتين تختلف الواحدة منهما عن الأخرى اختلافاً جوهرياً: الأولى متحدرة من فلسفة الإغريق وفنهم، وشرائع روما وتنظيمها السياسي، وقيم المسيحية الخلفية، والثانية متحدرة من الهند، أما مصر فهي من الأولى لا من الثانية، (ألبرت حوراني. . الفكر العربي في عصر النهضة - ص ٣٩٤).

ولم تكن دعوة طه حسين المصريين إلى تاريخهم إلا لتأكيد ما كان يسعى إلى تأكيده من خلال بعض كتاباته، من «أن الرجوع إلى تاريخ مصر يكفي للتأكيد من أن «الوحدة» التي تشترك فيها مصر» هي مع الغرب لا مع الشرق. . . ذلك أن مصر - كما يرى - لم تكن ذات صلة مستمرة مع بلدان الشرق بمعناه الدقيق، بينما كان لها مثل هذه الصلة بالبلدان التي نشأت فيها المدنية الأوروبية، أي بلدان الشرق الأدنى والبحر الإيجي والبحر المتوسط. وهي لم تلعب، في ذلك، دور المتأثر فحسب، بل شاركت في خلق مدنية البحر المتوسط، وكان تيار التأثير، طيلة العصور القديمة، يسير بينها وبين اليونان في كلا الاتجاهين، وكان تاريخ مصر، حتى ضمن

الامبراطورية الاسلامية، من أول المناطق التي «استعادت شخصيتها القديمة» في عهد ابن طولون وبعده . . . وهذا هو ما صرح به «وبنى عليه أساس تفكيره ورؤيته لـ«مستقبل الثقافة في مصر» - (المصدر السابق - ص ٣٩٥).

أما حين تطوّر به الموقف، أو مضى هو بهذا الموقف تطوراً، فإنه تبني نظرة «توفيقية» . . . فهي توفّق بين الأفكار «شرقيها» في أصوله الإسلامية «غربيها» في مناهجه . . . كما توفّق بين الرؤى والتصورات . . . - فقد وّفّق بين الفكرين القديم والحديث . . . وبين الفكر والفكر الغربي . . . كما وّفّق بين الإسلام والفكر السياسي الحديث . . . - ووفّق بين الموقف المجدّد والنظرة الكلاسيكية . . . - ووفّق بين «الثورة» - بمفهومه لها - و«الاعتدال» . . . وبين الراديكالية والنزعة المحافظة . . .

ولكنه «كموقف وطني» كان موقفاً لا غبار عليه، فهو في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» يلقي بتبعة التخلف في «الحياة المصرية» على الغرب، حيث يقول: «كنا موضوع الطمع الأوروبي والمنافسة الأوروبية والظلم الأوروبي، وأخرنا هذا كله عمّا كان ينبغي أن نبليغ من الرقي منذ أن اتصلنا بالحياة الحديثة» . . .

وعلى الرغم من أن طه حسين يلقي بتبعة التخلف هذا على أوروبا، ويصفها بالطمع والمنافسة ويصمها بالظلم، فإنه لم يورد كلمة «استعمار» كصفة لهذا الوضع بكل ما كان لنا منه من حياة سلب، وكأنه لا يريد النظر إلى القضية في وجهها الحقيقي، بل إن هناك من يرى أن هذا الموقف قد جاء «نتيجة مفهومة للقومية»، حيث يقرّر طه حسين أن «تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لاتصلحان أساساً للوحدة

السياسية ، ولا قواماً لتكوين الدول . وإنّ نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوموا على أي شيء آخر، (مستقبل الثقافة في مصر - ص ١٦ - ١٧) .

بل إنّه أعلنها صريحة في أن جعل مصر «جزءاً من أوروبا، في كل مايتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها . . » مضيئاً إلى ذلك ما هو أكثر صراحة في القول حين يذهب مؤكداً . . «إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين» . (مستقبل الثقافة في مصر - ص ١٨) .

وفي كتابه هذا، وفي أكثر من مكان فيه، يعتمد إلى أن يلوي عنق الحقائق لكي تطابق نظريته التي تستهدف إلحاق مصر بالحضارة الغربية . والتأكيد على أن عقلها مكون من عناصر تكوين عقله نفسها لا من سواها . وبهذا يكون طه حسين قد تخلّى «عن الهوية الشرقية التي تميّزه عن الغرب، ليتقمص الهوية الأوروبية، وإن ادعى أن الهويتين شيء واحد فلنكي لا يحس بأنه تنكر لهويته» (نازم سابا يارد - الرحالون العرب وحضارة الغرب - ص ٣٢٣) .

أما إذا أراد الذهاب أبعد، فإنه وقع في نطاق الاقليمية وحتى حين تطوره الموقف خروجاً على هذه النزعة الضيقة، فإن «نزعه التوفيقية» قد تغلبت على موقفه . فهو حين يجد نفسه في موقع الدفاع عن «التكوين العربي» في الحضارة المصرية فإنه لا يفرد هذا الجانب بماله من خصائص . بل يضعه واحداً بين «عناصر ثلاثة تكوّن الروح الأدبي المصري . . . أولها العنصر المصري الخالص الذي ورثناه عن المصريين القدماء على اتصال الأزمان بهم . . . والذي نستمدّه دائماً من أرض مصر

وسمائها، ومن نيل مصر وصحرائها. والعنصر الثاني هو العنصر العربي الذي يأتي من اللغة ومن الدين ومن الحضارة. . . وقد امتزج بهذه الحياة (الحياة المصرية) إمتزاجاً مكوّناً لها مقوماً لشخصيتها. . . ولا تقل إنها عنصر أجنبي. . . فليس أجنبياً هذا العنصر الذي تمصّر منذ قرون وقرون. أما العنصر الثالث فهو هذا العنصر الأجنبي الذي أثر في الحياة المصرية دائماً. ولا خير لها في أن تخلص منه. . . لأن طبيعتها الجغرافية تقتضيه. وهو الذي يأتيها من إتصالها بالأمم المتحضرة في الشرق والغرب جاءها من اليونان والرومان واليهود (كذا) والفينقيين في العصر القديم، وجاءها من العرب والترك والفرنجة في القرون الوسطى. ويجيئها من أوروبا وأمريكا في العصر الحديث الآن (انظر كتابه فصول في الأدب والنقد).

ويبدو أن هذا الموقف هو على النقيض مما سبق أن أعلنه. . . بل لعله يمثل تحولاً كبيراً في فكر طه حسين وفي نظريته إلى الثقافة العربية والحضارة العربية التي ليست «حضارة مصر» إلّا بعضاً من تكوينها. وإن كان قد قصر علاقة مصر بالعرب والعروبة على اللغة والدين ولم يتعداهما إلى سواهما.

لكننا إذا ما تتبعنا كتابات طه حسين من بعد في الثلاثينيات والأربعينيات وما أعقبها. . . سنجد أنه قد انقلب على كثير من أفكاره التي حرص على تأكيدها في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» خصوصاً في ما يتصل بالعلاقة بالغرب، وفي نظريته إلى الغرب، إذ ازدادت نظريته إمتداداً إلى الواقع العربي، في ضوءهما، نظرة أكثر موضوعية، واشدّ إرتباكاً بما لحضارتنا من قيم أصيلة. . . وكأنه كان في ما كتبه في مستقبل الثقافة في مصر. . . قد كتبه وهو ما يزال تحت وقع حالة الانبهار بالغرب، وقد عاد منه تَوّاً. فطمح إلى «حضارة حديثة» في مجتمع تقليدي، تقتبس، وتماثل،

حتى لو كانت في هذا تقلد مالتلك الحضارة من خصائص واتجاهات . بل
لقد دعا صراحة إلى (الأخذ) عبر تلك الحضارة ، وإلى « التعرف » على
قيمها ، وتقليدها ، نابذاً كل ما عداها .

أما في المرحلة التالية ، فيبدو أنه قد امتد أكثر في واقعه . وأصبح أقرب
إلى مشكلاته وقضاياها . وأكثر إتصالاً بها . وبجوهر حقيقة الحضارة العربية ،
بما انعكس لها من تراث فكري . وبما كان لها من دور في التاريخ .

وإذا كان لثورة طه حسين أساسها الفكري الذي تجلّت به . . فإن
المحرك على ذلك والدافع إليه لم يكن إلّا « سبباً ذاتياً » يمكن أن تعود به إلى
« عاهته » التي أراد التغلب عليها ، فهو ان كان قد عدم البصر فليملأ عيون
الحياة بما يكون له من نور البصيرة . وإذا كانت هذه « العاهة » قد حدّت من
حركته في الحياة وعلى أرض الواقع . فليحرك الحياة والواقع معاً بما له من
فكر . وإذا كان ذلك النداء القاسي الذي سمعه عند دخوله الأزهر « يا أعمى »
قد أوقع بينه وبين الأزهر مسرى فكر وحياة ، فإنه قد دفعه إلى التمرد على
نظام « الفكر » فيه ، ومن ثم الخروج عليه .

لكن لهذا « الخروج » أساسياته وجذوره التي يمتد بها في الواقع
النفسي للرجل ، وإن كان الأمر قد اتخذ طابعاً فكرياً .

ولو حاولنا أن نتبع هذه الفكرة - فكرة الخروج - لوجدناها تشكل
حلقات متصلة على مدار حياته .

- فقد « خرج » ، أول ما خرج على القرية التي هومنها ، وقبلها « خرج » على
البيت ، لما فيهما من ضيق لم يكن يتسع لذلك الطموح الذي جبلت
عليه نفسه وسكن روحه . . .

- ثم « خرج » على الأزهر الذي جاءه طالباً العلم فما وجد إلى العلم متسعاً
في السبيل ، ولا لطموحات العقل ملتقى . . فخرج . . .

- وقصد الجامعة ، من بعد هذا وتلك ، «خروجاً» منه على الأزهر ونظامه وعقول مشايخه . . .
- وقصد «التراث» بروح «التجديد» فيه ، فخرج عليه بما عدّه الكثيرون مروفاً يبلغ حدّ الكفر . . وكان ذلك هو خروجه الكبير . . .
- وقصد حياة العلم ، راعياً لها وموجهاً ، فخرج على كثير مما كانت تتداول من قيم ، أو تعارف عليه من نواميس . فأراد العلم للامة بعد أن كان للخاصة . . وهنا خرج على الحياة مرتين :
- فمرة خرج عليها بما كانت تريد - في وجهها الاجتماعي .
- ومرة خرج عليها بما لم تكن تريده - في وجهها الرسمي الذي لم يكن يريد للمجتمع أن يحيا حياة العقل التي تقوده إلى الحرية (وهي من أكثر الأفكار إلحاحاً على عقل طه حسين وفكره) .
- وهو الذي خرج على الحياة بالتجديد ضد التقليد ، كان له ، من بعد ، أن يخرج على التجديد في مساره المتطور أكثر مما أراد له فإذا فيه شيء من محافظة ماكانت له في بداياته أو معها .
- وكانت الحياة من حوله تدعو إلى انتمائها القومي ، فإذا به يخرج عليها بالانتماء إلى «الحضارة الشرق - متوسطة - بنزعة خالصة إلى فكر وحضارة أخرى ليس لنا إليها كبير انتماء» وإن كان لنا بها كثير انتفاع .
- أما حين خرج ، من دوامة هذا كله ، فإنه انتمى إسلامياً ولم ينتم عربياً - وكان في هذا «خروج» على القومية منها .
- إن الصوت الوحيد الذي لم يخرج عليه هو «صوت باريس» ، فقد كان ذلك الصوت عميقاً في نفسه . . مثبتاً في فكره ورؤياه ، مؤطراً لمنهجيه في البحث والنظر .
- بل إن «المخالفة» لا «المؤالفة» كانت هي «الخروج الأكبر» في حياة طه

حسين فهو وإن كان قد تألف مع كفاف بصره ، فإنه خرج عله ببصيرته وما كان له من علم ، وإذا كان العمى «يشكل محبساً» لصاحبه . فإنه قد خرج على عماء بما كان له من سبيل في الحياة اختطه منذ مرحلته الأزهرية ، حيث شغل الناس بما لم تكن تألف من حديث . فكان خارجاً على ما توارثوا من قناعات . . أورشخ في نفوسهم وعقولهم من مسلمات . وكانت «فكرة الخروج» مكوناً أساسياً لشخصيته التي انطبعت بطابع «المخالفة» لا «المؤالفة» . .

ولكنه لم يحصر القضية في نطاقها «الذاتي» الضيق . . بل اتخذ منها «منطلقاً» يمارس من خلاله دوراً فعلياً في الحياة الثقافية والفكرية العربية في النصف الأول من القرن الحالي . . وكان هذا الدور منوطاً بوضع أسس تفكير جديد ، ورؤية جديدة لكل من قضايا الواقع الثقافي العربي (في بنيته الأساسية وفي تكوينه) ، ولقضية العلاقة بالغرب (فكراً وحضارة) ومن ثم العلاقة بالتراث الإسلامي (الذي لم يعن طه حسين فكرة «العروبة» فيه) . كان طه حسين قد بدا ، منذ أن بدا ، حليفاً للحرية والرغبة في التجديد . . وليس من الغرابة في شيء أن يبدأ منهما . . فقد كان الانغلاق الذي عرف أول ما عرف في الحياة التي تفتح عليها فكراً وواقعاً قد دفعه إلى مثل هذا المسار الذي اتخذ منه طريقاً فكرياً . وكان هدفه أن يجنب «اليقظة الحديثة» التي تبدت في صور من صور النهضة ، ما يمكن أن تتعرض إليه من انتكاسة تذهب بها مذهب الفشل والعجز عن تحقيق «مشروعها» .

لذلك بدأ من «المفارقة» ، فلم يكن يطمئن إلى رأي سابق . . وشرع يفكر بعصره ولعصره . . فكان البداية للتفكير الحديث الذي كان له أن يتجلى في كتاباته . كما تجلى في كتابات بعض من معاصريه . إن مؤالفة له أو إختلافاً معه . فقد ثبتت تلك الكتابات - التي منها نستمد البدايات

الأساسية للتفكير الحديث - أساس « الحرية الفكرية » و« المنهج العقلي » ،
والتي مثلت مظهراً من مظاهر نمو الوعي الفكري العربي الحديث ، وكان
ذلك عند طه حسين ، بالدرجة الأساس ، قد مثل مظهراً من مظاهر التبرم
بعصر الجمود ، والنزوع نحو عصر متجدد يكون العقل فيه هو ما يرسم طريق
الحقيقة ، أو يقود إليه ، وقد أراد بذلك أن يوسع نطاق الحياة من حوله وفعل .

استعادة اللحظة الغائبة

كما هو الشأن مع كل مراحل الانتقال في التاريخ ، علينا ألا نتعامل مع (أو ننظر إلى) المرحلة التي شكلها عصر طه حسين بأنها مرحلة انتقال إلى عصر جديد ، فقد كان الواقع الثقافي والفكري العربي حتى ذلك الوقت «واقعاً كمياً» ، وكان على طه حسين وجيله أن يمثلوا «قفزة كيفية» من شأنها إنضاج الروح ، والبلوغ بالعصر صورته الجديدة .

لذلك لم يكن أمام طه حسين من سبيل ، «أو أنه أدرك المسألة على هذا النحو من خلال التأمل في معطيات التغيير» إلا أن يفكك بناء العالم السابق ، ليرسم صورة العالم الجديد - وكما يبدو ، فإنه فعل ذلك دفعة واحدة .

لقد شغف بمبادئ الثورة الفرنسية ، وتأثر بما قرأ أو سمع عن اختفاء العالم القديم أمامها ، وتحمس لذلك الروح الجديد الذي كان يتلمسه في ميادين الفكر والفن والمعرفة . . ولم يكن حماسه لذلك كله ، أو ما صلب منه في هذا الاتجاه ، حماساً ساذجاً ، بل كان «ثورياً متطرفاً» في البداية ، ممتلئاً بأفكاره عن الثقافة والبناء الثقافي ، لذلك وجدناه يبحث عن «منابع الثقافة» في عصره ، مستعيداً تفكيره فيها بأشكال متعددة :

- فهناك المفهوم ، الذي يقوم على أفكار التغير والمغايرة في مالثقافة والفكر من وسائل وغايات ، أويتخذ من بنى التعبير. . .
- وهناك «العمق التاريخي» الذي تمثله من خلال «حركة زمنية» بين التأثيرات / المؤثرات التي كان يهدف منها العثور على الطريق الذي قاد العقل الإنساني في القديم ، ويقوده في الحديث إلى مايشكل «متعطفاً تاريخياً». فأراد لمصر- على وجه التحديد- أن تتم حاضرها ، أوتنجزه بـ«الصيرورة السابقة» - أوما اعتبره هو كذلك .
- وهناك «تأويل النصوص» الذي كان فيه متمثلاً لمنهجيته ، وممثلاً لها في ماكتب في هذا الاتجاه (من خلال «في الشعر الجاهلي» و«حديث الأربعة» ، على وجه الخصوص).
- وقد شمل هذا التأويل «التاريخ» نفسه ، الذي أعاد مافيه إلى مايمكن أن نطلق عليه تسمية «التضادات المنطقية» .
- وتأسيساً على هذه النظرة وهذا الموقف وضع طه حسين في جميع ماكتب بذرة تصورين أساسيين ظلّ لهما زمنهما التاريخي على امتداد حياته ، هذان التصوران هما: التجديد ، والحرية .
- فالتجديد عنده هو الأساس والمنطلق في بناء الحياة الجديدة ، وإشاعة التصورات التي تخرج بها من «نظام التقليد» .
- أما الحرية فقد رآها في تصورين : فردي ، وجمعي - حيث كان الانتقال إلى عالم حديث معاصريستدعي ذلك . وقد نشأ قلبه وعقله على الاستقلال وقوة الإرادة ، انطلاقاً مما للحرية من مفهوم كلي عنده .
- ولكن ينبغي التمييز هنا بين جانبين من الكتابة في أدب طه حسين وفكره:
- فهناك ، أولاً ، المعطى الفكري ، الذي انطوى على تنظيرات ، والذي

كان يرسم من خلاله توجهات في الفكر والتفكير والأساس عنده في هذا كله هو «الاستلهام»، استلهام أفكار المستشرقين، واستلهام أفكار وتوجهات عصر التنوير الفرنسي، وقد تمثل في المصدرين منهج فهم الحياة وتقدير لحركة الفكر فيها. فكان يريد أن يكون «ماهو»، من حيث الأدب. ويكون «الآخر» بما له من رؤية للأدب، ورؤيا في الأدب. . ومن نظر منهجي في ما يتنكب من سبل الكتابة. .

- وثانياً: هناك أدبه، هو نفسه، الذي تمثل فيه «موقفه الشخصي» من الحياة. وكانت كتاباته هذه تفيض بالذي في نفسه - ويبدو منها أن ما كانت عليه تلك النفس كثير. . ومملوء بالمعنى - وإن يكن هذا «المعنى» لا يخرج في شيء. . بما له من أساسيات فكرية - عن مجمل كتاباته الأخرى.

- وكان طه حسين يحيا في عالمين :
- عالم ثقافته العربية . بمعطائها التراثي الذي نظر إليه من زاوية مغايرة للنظر الذي ساد عصره .

- وعالم الثقافة الغربية التي هي عنده أساس معرفي جديد، عثر فيه على ما استقر عليه فكره، وهدأت به نفسه الباحثة عن «مسار آخر» فكان يستجيب لهذه الثقافة استجابات مدفوعة بما هو فكري مرة . وبما هو إبداعي ثانية ، وبما هو ذاتي ثالثة .

ولتأثير هذه الثقافة الغربية (في وجهها الفرنسي) عليه ، لم يستطع إلا أن يجعل الأولى (أي ثقافته العربية) استجابة لها (بمعنى ما اكتسبه من الثانية من رؤية ، أو استعار من منهج) . حتى كانت هذه الثقافة الغربية . بتمثلاته لها . تبدو وكأنها سنة حركة العالم .

- ولما كنا ننظر إليه على هذا النحو، فإنه من الضروري أن نعمل على تبين

تأثير التصورات الاستشراقية . والأخرى الفكرية الغربية في نمو تفكير طه حسين . وألح هنا على نقطة اعتبرها أساسية في بحث كهذا ، وهي رؤية طه حسين للعالم ادبي . .

لقد ذهب طه حسين . يوم ذهب إلى فرنسا طالباً للعلم ، وهو يحمل

معه شيئين :

- قيم حضارة متفككة . . خارجة من عصرها الانحطاطي الطويل .
- وطموح لا يحد في البحث عن «طريق تنويري» لعصره .
- فإذا به يواجه «حضارة عضوية» ، كما واجهها سلفه «الطهطاوي» .
- لها نظام من القيم ، ومفاهيم تسير على هديها وتحكم توجهاتها ، ومضمون محدد ودقيق لكل «نظام» له فيها ثقافياً كان أم اجتماعياً أم سياسياً أم فكرياً أم اقتصادياً ، أي أن «القيم» تشكل نظاماً شبه كلي .
- وكما كانت هذه الحالة باعثاً على تمزق روحي وفكري عند سلفه الطهطاوي ، كانت عند طه حسين على نحو أعنف وأشد . فإذا كان الطهطاوي قد رأى في فرنسا «مسلمين بلا دين» ، بينما رأى في مجتمعه «ديناً بلا مسلمين» . فإن طه حسين كان قد وجد ، أو تلمس الحياة على نحو آخر ، أكثر صلة بتوجهات العصر ، وأبعد كثيراً عن مل هذه النظرة المستسلمة لموروثها ، فكانت العلمانية أساساً لتفكيره . ومنطلقاً لجميع توجهاته ، وبها ، ومن خلالها استطاع وضع «المسافة النقدية» بينه وبين «تراثه» .
- إلا أن السؤال الذي يطرح هنا . هو هل كان طه حسين يريد لمساره هذا أن يكون «ثورة نابعة من الفكر» تماماً كما هي الثورة الفرنسية في وصف هيجل لها ، والتي كانت ثورة وجد في أفكارها صلة قري ، مع روحه النزاعة إلى كل ما هو جديد من الأفكار التي كان يريد أن يبني منها عالمه .

- لاشك أننا نستطيع أن نتبين وجود عنصرين واضحين في كتابات طه حسين ، وقد شكلا منحى عاماً لتفكيره . وهما التنوير والحرية .
- فالتنوير الذي أرادَه كان يهدف إلى الخروج بالحياة ، وبالعقل الإنساني من مرحلة التفكير الساذج المجبول على الفطرة ، والأخذ بنفسه والحياة من حوله ، بالمسلمات ، وإن العودة إلى الذات تستدعي تفكيراً سليماً يمكن أن يبني «مملكة العقل» وكان هو نفسه ينفذ إلى هذا العالم بفكر أراد أن يحمل تأثيره المباشر إلى الحياة .
- أما الحرية فهي مايساعد على بناء هذا - وقد مررنا بمعناها عنده . . .
- وكان ماأسسه على هذا المفهوم ، أو انطلق من هذه النظرة هو البداية الفعلية ، والمحرك الأساس لعملية الصراع التي خاضها في عصره ، والتي كان فيها ممثلاً للجديد وروح التجديد . . . وقد واجه فيها «أنصار القديم» ، فكانت واحدة من أخصب معارك عصرنا ، ثقافياً وفكرياً .



- وهنا نصل إلى مايشبه الخلاصة الاستنتاجية :
- فمع طه حسين نجد أنفسنا بحاجة إلى فهم «سياق التطور» الذي انتهى به إلى مثل هذه النتائج ، وهي نتائج تبدو في فكر الرجل متصفة بالضرورة الناجمة عن موقف أخذ بفكرة التغيير . والتجديد .
- كانت مقالات «حديث الأربعاء» التي سبقت كتابه «في الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) قد انطوت على فكرة أساسية هي الانتقال بـ«العالم القديم» إلى مجالي «التفكير الجديد» و«الرؤية الجديدة» .
- لذلك نستطيع وصفها بأنها كانت «ثورة غير مرئية» . ندركها من خلال

تلك التصورات والرؤى والأفكار الجديدة التي كانت تنبثق . أو تتشكل من خلال قراءة «النص القديم» . .

أما كتابه «في الشعر الجاهلي» فكان تركيزاً على «الفكرة» أكثر منه إدراكاً لها بالكلمات ، إذ لم يكن يهتم من «قراءة الماضي» أحياء ذلك الماضي - كما تفعل القراءات السلفية - وإنما كان مهتماً ببناء الرؤية الجديدة ، والتصوير الجديد وكان ، من خلال هذا كله ، يعيش في عالمين ، عالم الفكر الغربي والثقافة الغربية . وعالم ثقافته العربية - ولم يرد أن يخلق أية مسافة بينهما من حيث الروح والقيم . بل أراد أن يقيم واقعاً صلباً من الفكر والتفكير ينتصب أمام الشعور بالذات ، لذلك وجدناه يقرب «المكاني» من «الزماني» . بل ويجعل «الزماني مكانياً» فلا يقطع أحدهما عن الآخر فكانت الثقافة اليونانية والفكر اليوناني ، إلى جانب الثقافة الأوروبية الحديثة وفكرها «ملجأ الشعور» عنده بإحساسه المدوم الحاضر ، ولم يكن يرى لهذا الحاضر أن يكون إلا بهما معاً ، ومن خلال ما يثان من تأثير .

- من هنا نجد عودته إلى الماضي . تراثياً / أدبياً كان أم حضارياً . هي عودة لآحداث «التطور المتوازي» بين «لحظة زمانية غائبة» وأخرى «ينبغي أن تكون» وهي ما يطررها مجمل تصوره .

جيل انتاج الثقافة الحديثة (الأفكار . . . والمنطلقات)

لنا أن نتساءل . . ونحن نواجه جيل النهضة الحديثة (بكل ماتبني من أفكار . . أو أنتج من ثقافة) عن ماهية الثقافة التي أنتجها، أولنقل - وبتعبير أكثر حداثة - ماهي «الجوانب البنيوية» لانتاج هذه الثقافة التي تشكلت منها، وبفعلها السمات الكاملة لمرحلة من مراحل الحياة العربية هي مرحلة «تأسيس الثقافة الحديثة»؟

لا بد لنا، في معرض الجواب على ذلك، من استعادة صورة هذا الواقع، في تشكلها . . وفي ما بني عليه:

- فقد بدأ هذا الواقع بالخروج من دائرة الهيمنة العثمانية التي لم تكن أكثر من غطاء للتخلف، وعلى المستويات كافة، ليقع في دائرة هيمنة أخرى هي «الهيمنة الاستعمارية الغربية» التي لم يقم هذا الوجود، في مقام به من حركة على مستويات الحياة والثقافة والفكر، إلا لرفضها . .
- ثم كان هناك، وفي حالة من التوافق، نمو واضح وكبير في حس الاستقلال، والسيادة الوطنية، والاتجاه نحو بناء وحدة الأمة: واقعاً، وثقافة، وتطلعات انسانية .

كان هذا التوجه في الثقافة العربية وفي الفكر قد بدأ يأخذ مساره البين منذ منتصف القرن الماضي ، متجهاً نحو تأكيد خصائص واقع الأمة ، وجوداً حضارياً وتاريخياً وثقافة ، والبناء على هذا الوجود ما يمكن أن ندعوه «ثقافة حديثة» تقوم على بعدين أساسيين :

- الأول ، ويتمثل في مالهذه الثقافة من خصائص تاريخية ترسم ماله من توجه . . .

- والثاني ، أنها في هذا التوجه كانت تتماهى مع «أصولها التاريخية» من جهة ، ومع العصر ، بمعطيات الحياة والتفكير فيه ، من جهة أخرى ، وكان هذا واضحاً في أطروحات الطهطاوي ، ومحمد عبده من بعده .

غير أن الجيل التالي لهذين المفكرين الرائدتين - جيل طه حسين (الذي كان من أعلامه الأوائل أحمد لطفي السيد) كان قد جعل للثقافة منطلقاً خريقوم على فكرة التماهى مع الثقافة الأوروبية . . حيث رأى هذا الجيل أن كل ثقافة حقيقية يجب أن يكون لها مثل هذا المسار ، وأن على الأمة (التي خصوها بمصر - احتيازاً لضرب من الإقليمية التي تساعدهم على تفتيت واقع الأمة ، ووحدة ثقافتها) أن تتخلى عن تخلفها ، وعن منطقتها السائد - أي عن الممارسات الثقافية في صورتها التي انبثقت بها مع فجر يقظتها الحديثة ، لتتمتع بنظام ثقافي جديد) .

وحين نتأمل في المسارات التي تبذلها هذه الدعوة - أو اتخذتها - نجدها قد تجاوزت ماهو قومي ، في الأساس ، محاولة تغيير سمات «الوطني» بخصائصه العربية ، في محاولة لتوليد «نظام ثقافي» يقوم على الإيمان بالغرب : ثقافة ، وتوجهات حضارية ، وأساليب تفكير ، ومناهج بحث . . ولعل الخطورة الأساسية التي كمنت في ذلك التوجه هي قيامه على مبدأين أساسيين ، وإن لم يصريح بهما :

- الأول، هو إنكار وحدة الأمة، كحقيقة حضارية ووجود ثقافي .
- والثاني، تبني منطق «الدولة القطرية» واستعارة «مفهوم بديل» لها، هو «مفهوم الأمة» - كفكرة بديلة لتصور بديل .

ننظر إلى هذا ونضعه في إطار «الاعتراض الفكري» لتزامنه المرحلي مع فترة المد الاستعماري - الذي قام على محاولة التفتيت والبناء ضمن هذا التوجه - وهي نفسها فترة «المد القومي» التي قامت على مواجهة هذه المحاولة، وعلى تأكيد وحدة الوجود العربي، ثقافة، وحضارة، ومساراً تاريخياً، ورؤياً مصير. ولم تكن محاولات «الغربة الثقافية» إلا محاولة لإغلاق باب المستقبل أمام عوامل النمو في الخصائص القومية للثقافة العربية، حيث نجد الثقافة الغربية وهي تمارس «دكتاتوريتها المنهجية» عليها.

وانطلاقاً من هذا، بدأ التمحور حول أوروبا - الثقافة والحضارة - وقد تضخمت هذه النزعة إلى الحد الذي أدى ببعض إلى الغاء التكوينات والخصائص القومية، والدعوة إلى «التطابق» مع الغرب - وإن بصورة من صور التبعية والتقليد. وقد كان هذا التوجه واضحاً وصريحاً عند كاتب مثل «سلامة موسى»، وإن كان قد ظهر على نحو آخر في كتابات آخرين - إلى الحد الذي دفع طه حسين إلى البحث عن أصول «ثقافته المصرية» في الثقافتين الأفريقية واليونانية في القديم، وفي الثقافة الأوروبية في الحديث. فإذا ما أخذنا هذا التوجه، في أبسط وجوهه وجدناه، في أكثر الافتراضات حسن نية، ليس أكثر من محاولة لتأكيد «الخصوصية الإقليمية» وإحلال «تركيب العزلة» ثقافة وحضارة، بحيث تكون هذه الثقافة «متجانسة» مع نفسها، و«منقطعة» عن محيطها. أما تجانسها الوحيد فهو مع الغرب. وقد عمل طه حسين على أن يجعل ثقافة عصره تتغذى من استمرار النسق

الثقافي (غير العربي) الذي عمل على تأكيده، وهونسق كولونيالي، يعرض الخصائص القومية للأمة. وثقافتها إلى التفتت. وبالتالي تركيز الأهمية كلها على النسق الثقافي الغربي الذي لا يمكن أن ينتج، في حالة كهذه - ضمن ماكان للأمة من وضع تاريخي - غير «ثقافة كولونيالية» تغذي مثل هذا النسق من «الثقافة القطرية» التي من شأنها تعميق النزعات الاقليمية، راسمة «الحدود الجغرافية» بين مواقع الثقافة الواحدة.

ولكن.. مالذي كان يحكم «عقل» هذا الجيل وهويصدر عن مثل هذه الأفكار، ويبحثها في مسارات كهذه؟
لاشك أن هذا الجيل كان قد بنى تصوراته على مااعتبره «حقائق أساسية».. وفي مايتصل بالثقافة كان يرى أن كل ثقافة حقيقية لابد لها من «التماهي» مع الثقافة الأوروبية.

وكانت الثقافة العربية في هذه المرحلة قد سارت في حركة مزدوجة استشرافاً لمصادر تكوينها الجديد :

- تمثلت الحركة الأولى في اعتماد الأصول الثقافية العربية، وإن كانت المفارقة الكبيرة في هذه «الحركة» أن المتبنين لها، السائرين في اتجاهيها كانوا يحتمون «بالسيادة التراثية» من غير تمثل للمعطيات الحركية لهذا التراث، فكان «مصدر تقليد» بدل أن يصبح عامل ردد للرؤية الجديدة..

- أما الحركة الثانية فقد عملت على تجاوز هذا النمط التقليدي، سالكة سبيل المعرفة الحديثة.

وقد ارتبطت هذه «المعرفة» عند طه حسين بالتفكير في نطاق الغرب، والثقافة الغربية التي اعتبرها عامل دفع ثقافي يمكن أن يرسم توجهات

جديدة تتمثل في ماكان يريده - للعقل العربي (بل المصري تحديداً - لأنه كان محور التفكير عنده ، كما هو محور «مشروعه الثقافي» . . .) .

فإذا ماعدنا إلى العام ١٩١٧ ، يوم قدم أطروحته الجامعية عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» نجده يعرب عن اعتقاده «بمنتهى اليقين أن تأثير أوروبا وفي مقدمتها فرنسا ، سيعيد إلى الذهن المصري كل قوته وخصبه» . . . كما نجده وهو يتحدث عن «تغريب الشعر العربي» (كذا) بما كان لشعراء المهجر - ويخص منهم جبران - يرى في هذا «التغريب» المزعوم «تشریفاً للشعر العربي ، ورياضة للذوق الشرقي واللغة العربية على أن يسيغا مالم يتعودا أن يسيغا من قبل» (انظر حديث الأربعاء - ج ٣ - ص ١٤٦ ١٤٧) .

وإذا كان لابد من تحديد «المجال الفلسفي» لحركة طه حسين ، في إطار عصره والتي هدف من خلالها إلى زعزعة الكثير من «التركيبات الثقافية» السائدة بنوع من «النفوذ المنهجي» إلى العقل العربي . . فإن هذا «المجال» لا يحتاج إلى كبير جهد في البحث عنه ، بقصد الاكتشاف والتبين :

- فالجانب الظاهر منه هو ماكشف عنه طه حسين بنفسه متمثلاً بتبني منهج الشك الديكارتي في دراسة الشعر الجاهلي - ممتداً به إلى سواه . . .

- أما الجانب الآخر ، الذي ظل شبه مستتر في البناء العقلي لطه حسين ، والذي أثر تأثيراً كبيراً في بلورة «نظريته» وفي صياغة «نظريته» ، فهو «الفكر الاستشراقي» بما كان له من أطروحات تتصل بأكثر من محور من المحاور التي أقام عليها «مركزية تفكيره» .

لقد كان طه حسين يعاين «المجتمع التقليدي» عامداً إلى التبشير بزواله ، أو ، على الأقل ، بانحسار وجوده وضعف تأثيره . ولكنه ، في موقفه هذا ، وفي نظريته المنبثقة عن هذا الموقف كان شديد الخضوع لمنطلق

الغرب الثقافي . لذلك ظل على انفصال عن الطموحات القومية للأمة - التي خص منها بالنظر واقعها في مالها من ماضٍ تاريخي وثقافي - وأنكر عليها وحدتها في الحاضر، وكان تأكيداً على المجال المعرفي في الثقافة الحديثة أن قاده إلى النظر إلى كل «حيوية ثقافية» من خلال الغرب، وعبر لصلته التي يمكن أن تقوم (أو ينبغي أن تقوم) مع الغرب، فكان بذلك عنصراً مساعداً لا على «حوار الثقافات»، بل على «الهيمنة» و«التغلب». وكان هذا التوجه منه يرسم منحى واضحاً لـ«عقلية المغلوب».

ومع كل ما صدر عنه طه حسين من مواقف وآراء . . . فإن بعض الباحثين العرب يعمل على تخفيف حدتها وتقليل شدة وقعها، ناسبين هذا التوجه منه إلى مايرون فيه من «طبيعة تنويرية» - بكل ماتقترن به من «موسوعية» - تصل صاحبها بكل نشاط، وتربطه بكل اتجاه، وتدفعه إلى أن يقدم إلى مجتمعه المتخلف كل ما يمكن أن يساعد على التقدم» - فإن ذلك كان مدعاة لتعدد أنشطته «الثقافية»، بالقدر نفسه الذي تعددت أدواره الاجتماعية» (انظر جابر عصفور - المرايا المتجاوزة - ص ١٠).

يل أن هذه «الطبيعة التنويرية» هي التي أبعدت طه حسين الناقد عن أن يتمثل اتجاهاً بعينه، أو تجعل من نقده «استجابة متحدة متلاحمة تتكرر في ثبات، بل تدفعه إلى لون من الموسوعية يأخذ معها - من كل الاتجاهات النقدية والنظريات الأدبية والأعمال الإبداعية - الأفكار والآراء والنماذج التي تجدد الإبداع الأدبي وتؤصل درسه في مجتمع متخلف» (جابر عصفور: نفسه - ص ١٠).

إلا أن السؤال الذي يواجهه هذا كله: يواجهه التوجه فيه، بنفس الوقت الذي يواجهه «صياغته» سؤال يتعلق بالهوية، فأية «هوية» ثقافية وحضارية، كان طه حسين يتمثل؟ وأية «هوية» ثقافية وحضارية كان يريد

احلالها في مجتمعه ، خصوصاً وأن مجتمعه هذا في تلك المرحلة من تاريخه كان يرسم أعلى درجة من درجات التطلع إلى «العصر الحديث» ويسعى إلى تجسيد مفهوم «الحداثة» في ماكان له من عطاء فكري وثقافي؟

هذا السؤال لنا معه وقفة أخرى .

التمزق بين وعين . .

- هل كان طريق «الحدائث» اتجاهات ومفهوماً، واضحاً أمام الجيل السابق من المفكرين والمبدعين العرب؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار ما قدموه على طريق المغايرة والتغيير يتضمن تكريساً لاتجاهات الحدائث وصياغة لمفهومها؟ .

قد يبدو السؤال، للوهلة الأولى، ضارباً في طموح البحث الذي يستقصي الجذور. . وإن كان، في حقيقته وواقع بحثه، ينم عن رغبة في الاستقصاء تنظر إلى «المرحلة السابقة» من حياة فكرنا وإبداعنا على أنها «مقدمات تاريخية» لصياغة حياة الفكر والإبداع صياغات جديدة، تأخذ بالأسس التاريخية لبناء الفكر، وتلتزم الرؤية الحضارية في ما يكون له من معطى. ومن خلال ذلك كان تاريخنا الفكري والأدبي الحديث قد عدّ مثل هذه التوجهات «تحولات كبرى»، إن في الفكر أو في الشعر. . معتبراً إياها «موقفاً تحديثياً» عبر عن «مشروعه» بصيغ وأشكال وأفكار وتوجهات جديدة. وكان لهذا «المشروع»، منذ بداياته، من عمق الاتصال بالواقع، والإسهام في حركة تغييره، والتطلع إلى بناء وتكريس «نموذجه الجديد» ما جعل منه مشروعاً حيوياً، متصل التيارات، حتى وإن كان على خلاف، ومعمقاً روح

الحوار، حتى وإن كان بعض هذا الحوار على شيء من التباعد في ماله ومن موقف واحتكام . فالمهم في هذا كله أنه جعل من هذه البنية الثقافية وعاء تفاعل ، مما طبع حياة الفكر والثقافة بالفاعلية والتأثير في رسم مسار جديد للحياة والانسانية في المجتمع العربي . .

وقد كان من خصائص بناء الفكر والتفكير في تلك المرحلة أن رجالاً لنا تلقوا «القديم بالاستيعاب وإعادة الصياغة والبناء ، بالنقد والتقويم ، بالاضافة ، وبالانضاج والتطوير، بقطع ما لا يتصل ووصل ما يستجيب لحاجات موضوعية» ، فكان فكرهم ، في هذا ، ينظر إلى الأمر من زاوية كون «الجديد الثقافي لا يبدع من فراغ ، إنما يبدع مؤسساً على ذخيرة من الأدوات والتقاليد والأنواع والطرز والأنماط والصيغ والأشكال (. . .) وسيطرته عليها هي ذات الوقت تحرر منها ، وفي تحرره منها تكمن إضافته إليها» . (د . عبد المنعم تليمة - مجلة «فكر» - ع ١٤ - آذار (مارس) ١٩٨٩ - القاهرة - ص ٢١) .

بمثل هذا المنحى تمثلت روح الاستمرارية في الثقافة العربية الحديثة ، متجاوزة المراحل التي انطبعت بنزعة المحافظة ، وسيطرة فكرة الوراثة ، وشيوع روح الاستقلال النسبي . .

ولكن السؤال الذي يطرح هنا : كيف تأتي لهذا الجيل (الذي يعدّ طه حسين أبرز أعلامه وأعمقهم أثراً وأشدّهم تأثيراً) . . كيف تأتي له أن يحقق مثل هذا الامتداد المؤثر في واقع الثقافة العربية الحديثة؟

ينبغي أن نتنبه في معرض إجابتنا عن سؤال كهذا إلى مسألة في غاية الأهمية ، وهي أن الواقع العربي ، على مستويات الحياة فيه والتفكير ، كان يتأهب تاريخياً لتقبل «الجديد» و«المغاير» تطلعاً إلى «التحديث» . وفي هذا السياق كان المجتمع العربي يعيش الرغبة في التخلص من كل مالمصق

بحياته من جمود، ومن كل ما ينتمي إلى روح الماضي، الذي كرس من القيم، وأشاع من المفاهيم ما سلم الحياة والتفكير إلى الجمود فالعقم.

- وإذا كانت مصر، على وجه التحديد، قد تلقت «صدمة الحضارة» مع الحملة النابليونية عليها العام ١٧٨٩. . فإن هذه «الصدمة» بقدر ما كانت مدعاة للتغير والتطور، فإنها كانت عامل «تحفيز للذات»، في إطارها الوطني، على مواجهة «الآخر» الذي نقل إليها الحضارة في صورة «غزو» فكانت «الحضارة الغربية» في أذهان الكثيرين رديفاً لمفهوم «الاستعمار».

غير أن جيل طه حسين كان قد انفتح على «الغرب الثقافي»، ورأى في الكثير من أساسيات حياته المعرفية طريقاً لأدب جديد، وفكر جديد، وكان هذا التوجه منه قد رسم له طريقه، وهي طريق أخذت بالثورة مفهوماً، وبالمغايرة توجهاً.

ولم يكن أمام طه حسين، منذ أن بدأ تفكيره الواضح يتشكل، أن يكون حيادياً مع شيء، أو توفيقياً، خصوصاً وأن «الكلمة»، التي عرف طريقها، كانت هي، لا سواها، سلاحه الفعال في ما اتخذ، من بعد، من ثورة فكرية واجتماعية.

وإذا ما تابعنا «أيامه» منذ بداياتها الواعية، سنجد أنه الثورة كامنة في ذاته، فكانت تأخذ بمسارات تفكيره، محاولاً التغلب، بمنطقها، على النزعات التقليدية، والفكر السلفي، مما يمثل إرث حياة وجد نفسه خارج مفاهيمها، آخذاً بالمفهوم الحي، المتصل بالعصر، حركة وحياة ورؤى إبداعية. . .

ومع أن زوايا النظر، في بداياته، كانت «شعرية» أكثر منها «فكرية»، إلا أنه سعى إلى «المفاهيم» ليعطي من خلالها واقعاً مغايراً لكل ما يتعامل

معه، من الأدب إلى الفكر، ومن الحضارة إلى الإنسان، ومن التاريخ إلى الواقع.

ولعل طه حسين، بتوجهه هذا ومارسم له من اتجاه، كان يقود الحياة في مجتمعه إلى تحول عنيف أشبه بالعاصفة، مشيعاً «الحس الحضاري» في واقع كان أكثر ميلاً إلى «التقليد». فكانت الهزة الأولى لهذا المجتمع التي أحدثها طه حسين «هزة عقل» ذهبت منه حتى الأعماق، يحكم تناولها بتقنيات هذا المجتمع - وكان ذلك من خلال نظرتة إلى «الشعر الجاهلي». كان كتابه هذا بداية اصطدامه، الحاد والعنيف بالقوى التقليدية في مجتمعه التي حاولت أن تسحقه سحقاً. فتجرد لها بالفكر والقلم. وما كان يهد منه اهتمام حتى يثير آخر، في مساره المقاوم للتقليدية والفكر التقليدي. وكان في هذا كله مؤثراً أبلغ تأثير. فهو متحدث لم تكن تنقصه جاذبية الحديث، ومعلم كان على شيء وافر من «حقيقة الحياة» التي تعلمها، وجاء يعلمها مجتمعه.

غير أن هذا كله كان في مرحلة من القلق الساقط عاشها المجتمع العربي: فمن جانب كان الاستعمار يسط ظله الثقيل على الأرض العربية. ومن جهة ثانية كان إخفاق «الثورات الوطنية» في أكثر من مكان، على امتداد رقعة هذا الوطن الكبير. إلى جانب محاولات طمس تلك «الأصوات الصارخة» بالحرية والاستقلال، التي تعاون عليها استعماران: الاستعمار الأجنبي، والآخر الوطني...

«لقد كانت هذه الفترة التي نتحدث عنها من أشد الفترات تفجراً في التاريخ العربي الحديث... بل كانت «فترة التفجر» على مستويات الحياة كافة: مفاهيم تتغير، ومشاكل تنشأ، وأحزاب تقوم... وأجيال جديدة تفتح مليئة الفكر والوجدان لهذا الاحتدام الصارخ.

- في هذا الجويأتي كتابه «في الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) لينسف واحدة من أشد قواعد التفكير التقليدي رسوخاً وثباتاً. مبشراً، من خلاله، بمعالم فكر أدب جديد أراد من خلاله أن يستقطب الاتجاهات في عهده، ويقود الحركة التحديثية. فقد كان يهيمه أن يوجه الفكر وجهة جديدة، مغايرة. ولم يبدأ مما هو «فني» أو «بديعي» - كان ذلك عنده «تحصيل حاصل» يمكن للأدب أن يكتسبه ببساطة وسهولة - إنما بدأ من ذلك الهاجس الملح الذي يرسم الطريق على درب المستقبل: فبدأ من الفكر بالرفض المطلق لماضيه كله، ورأى، في مارأى، أن التفكير في عصره مستعار، وهوفي وضع من التحجر الفارغ. لذلك لابد من الثورة، والهدم، والاقتلاع... ولكن... إلى أي بناء؟ ما البناء الذي أراد أن يشيد؟.

- يفتح لنا كتابه «في الشعر الجاهلي» عن منهج عقلي، يفصح عن جوع إلى التجديد فكراً وتفكيراً... وأن يعيش الإنسان ماضيه، وكل ما ينتمي إلى الماضي، بإحساس اللحظة الحاضرة. لذلك توازت عنده، أعني في فكره، الاتجاهات التحديثية مع الرغبة في التأسيس لاتجاه جديد...

- غير أن هذا «الاتجاه» منه ما بلغ به كتابه: «مستقبل الثقافة في مصر» (١٩٣٨) حتى كان «يمشي غرباً». فقد وجدناه يمشي نحو الغرب جغرافية، ويمشي نحو الغرب صلة حضارية... ويمشي نحو الغرب، في الحاضر، بعداً ثقافياً يريد لمجتمعه أن يتشكل من هذه «السعة القارية» و«السعة الحضارية»، و«السعة الثقافية»، فيترجم عن نفسه من خلالها.

- فقد كان طه حسين في ما يميزه من «صياغة الفكر الحديث» يصوغه على الصورة التي رآها في أوروبا، أورأى أوروبا عليها. لذلك كان عمله

ينصب في جانب كبير منه على التقريب بين العقل المصري - كما خصه بالحديث والتوجه - وبين هذا «الفكر الحديث» الذي يستقي من غنى الأجواء الغربية، ومن الحضارة الحديثة التي هي وريثة ذلك العقل اليوناني في مداه البعيد.

- وكان «مشروعه» هذا قد انطوى على تفاصيل كثيرة وخطيرة، كان يجدها مهمة لمسار فكره ومنحى تفكيره . . ولكنها تفاصيل كانت «تخدع الواقع» - واقعه هو - بما يكون لها من مظاهر. . . .

- لذلك فإن التغيير الذي عمل طه حسين على إحداثه، في الثقافة وفي تفكير المجتمع، كان تغييراً جذرياً - بمعنى التحول - لذلك التغيير الذي يعي «أصالته الخاصة»، بل هو «التغيير التحويلي» - إذا صح التعبير - بما كان يريد إملأه من استجابة لواقع الآخر، متجاوزاً في هذا «الآخر» طابعه الاستعماري، جاعلاً منه «قوة ملهمة» لطبيعتنا. وكان يريد أن يقود الذوق الفني والفكري نفسيهما إلى ذلك، وصولاً إلى الطريق الجديد التي أراد. ولم يكن طه حسين في هذا إلا سالك «طريق اصطناعي» فيه الكثير من الشذوذ والتعسف بحق ثقافته العربية، ولكن فيه، أيضاً، شيء من الواقع، على الأقل في ما كان له من «فكر أدبي».

- قد يكون طه حسين في هذا - وهو تفسير حسن الظن - قد أراد انقطاعاً عن تلك «التقاليد المحورية» التي كانت تشد الأدب والفكر، كما تشد الحياة في مجتمعه إلى الماضي، مبررة ذاتها العاجزة عن الابداع والاضافة إلى ضمير العصر بمثل هذا الاستقرار عند القيم، والتمسك بالتقاليد التي لم تكن ترى لها بديلاً بقيم أو مبادئ أخرى. فكانت تنبش في الماضي عن كل جذر يمكن أن تتصل به، حتى لو كان «اتصالاً ميتاً»، لمجرد أن يعطيها تبرير الوجود والشرعية. احتماء بفكرة «الأصالة».

- وكان ينطلق من التناقض مع هذه الأفكار . فيرفض ويقترح - ولكن في اتجاهه الذي رآه . فقد كان رفضه يقوم على «القطيعة» ليس مع التراث ، بل مع «المنظومات الأساسية» للتفكير في هذا التراث ، ولبناء «فكرة الثقافة» و«الوجود الثقافي» فيه باحثاً ، في الوقت نفسه ، عن «نسب آخر» ، قديم ، يبرر له توجهه هذا ، حيث وجده في «متوسطة مصر» التي أقام عليها أساسيات «مشروعه» ، ثقافياً وحضارياً .
- من هنا لا يمكن اعتبار المعركة مع طه حسين «معركة القديم والحديث» - كما شاء البعض أن يطلق عليها - بل هي «معركة الثقافة» و«معركة العقل» بين «قديم» يرتكز إليه ، ويستمد منه مقدمات الوجود والبقاء ، و«حديث» له «قوانينه الخاصة» ، وله «خصائصه» - وقد أراد طه حسين أن يبني عليه ماأراده من «حركة تغيير» . . فكان يركض وراء الحياة الغربية بكل ما ينحدر إليه منها من معطيات ، مستعجلاً هذه الولادة السريعة التي كان يريد لها ان تمرّ تحت غطاء التحولات ، ولكنها - وهذا مابقي في طرف آخر من الرؤية والتفكير - كانت متوافقة مع تطورات سياسية وفكرية كانت المنطقة العربية تعيشها في حالة من حالات «التهاب الأزمة» . .
- لقد كان همّ طه حسين يتجه إلى بلورة رؤية جديدة للشخصية المصرية ، لذلك راح يبحث لها عن «تاريخ مضاف» إلى التاريخ الذي عرفت وإليه انتمت . . كما يبحث لها عن مدى «جغرافي - حضاري» ليربط به ثقافتها . فكانت «حركة التحديث» التي قادها حركة منبئة الجذور ، متناقضة مع مانسميه «الحقيقة الحضارية» فقد بحث عن «نفسه» في «الآخر» ، مقبلاً على مجتمعه ، وعلى ثقافة هذا المجتمع من الخارج . .
- ولعل الميزة الفريدة لطه حسين أنه حين دخل معترك الكتابة كان يقود حياته فرداً في «اتجاه» يرسمه ، ويريد أن يفرض إرادته من خلاله .

وكذلك كان أكبر خصومه . (مصطفى صادق الرافعي) . فكان هذا الأخير يستعين على خصمه بقوى التاريخ . أما طه حسين فكان يحشد لمعركته الوسط الاجتماعي الذي يتوجه إليه بحركة التطور والتجديد، والذي يطالبه بأن يلعب الدور كله في هذه الحركة .

وكان تمزق الناس كبيراً بين الوعيين : «وعي التاريخ» ، و«وعي الحضارة والتقدم الحضاري» وكان كل من الوعيين يحمل صدمته .

العقل . . الحرية . . والاستلاب

«أحسني مثقلاً بعبء الأمور التي عليّ، بعد،
أن أحدثكم عنها، نظراً لوفرتها وأهميتها . . .»
أندريه جيد
في آخر محاضراته عن ديستوفسكي
(-الأفكار . . . والمنطلقات)

ما يزال الكثيرون منا ينظرون إلى طه حسين نظرتهم إلى النجم
القصبي البعيد، فيرون فيه نجماً متألّقاً ماتزال إشعاعاته تتسرب إلينا بما حمل
من طاقات التفكير وأنوار التجديد . . زد على ذلك ما يروونه فيه إنساناً حمل
من الميزات ما لم يكن لرجال عصره بمثلها عهد . . من غير أن ينكر عليه أحد
إنه كان «صاحب فكر» و«رجل فعل»، وإن كان فعله هذا قد جاء بالفكر،
ومن خلال الفكر.

لذلك كثيراً ما يجد أصحاب هذه «النظرة المتصالحة» من الصعب
عليهم، والانكار على سواهم، قراءة طه حسين على أساس من نظرة
مغايرة، أو الخروج باستنتاجات لاتدرج في نطاق الشائع والمألوف .
فلننظر إلى طه حسين من وجهة نظر أخرى، اتخذها هو نفسه وأكد

عليها بمزيد من الاصرار . وأعني بها ما يمثّل في هذا «الفكر» الذي قدمه لعصره . وقدم به نفسه إلى هذا العصر، مبتغياً وضع صورة واضحة للقسمات لنظام معرفي جديد كان يجد طموحاته كلها منعكسة فيه ، معبراً عن ذلك بصيغ مختلفة :

- فمرة يعكسه من خلال أفكار يتبناها ويقول بها ، أو يأخذها على أنها جزء من «نظامه الثقافي» - وغالباً ما كان يبث هذا في دراساته في الأدب العربي .

- ويعكسه ثانية في ما يقدم من صور هذا الفكر في صيغة من صيغ النقل والتلخيص .

- وثالثة يكون لنا ذلك منه في دراسة تستقصي وتستجلي بعض مالهذه الأفكار وأصحابها من منازل في عصر اهتم لها واهتمت له . . مشاركاً إياهم الفكر والحركة . وعاملاً على تحريكها في نطاق ما كان له من «مشروع ثقافي» .

فعلى خلاف غير واحد من مجايليه أدباء ومفكرين ، مرطه حسين بسلسلة من المراحل ، إن في تفكيره أو أعطى ، حتى عده هذا العصر ، بيما له من إطلاق في الأحكام ، «ثورة مستقلة» ، متمثلاً فيه منحى التفكير وما انعكس لهذا التفكير من أثر أو كان له من تأثير ، هو في صيغه جميعاً ، النقيض لذلك «النظام المعرفي» الذي كان يسود مرحلة ظهوره ، أو المراحل السابقة عليها . فكان في إجراءاته هذا التحوّل من «نظام معرفي» سائد إلى آخر سواه قد طرح منه «فكراً معارضاً» ، إن لم يكن «بديلاً» لهذا كله . وقد عبّر عن ذلك في ما كتب أجلى تعبير ، بحركة في ذلك إيمان متداخل .

- فمن جانب كان الإيمان بالعقل ، وبحرية التفكير محركاً أساسياً له في ما تبني أو قدم من «صياغات فكرية» .

- ومن جانب آخر كان إيمانه بسيادة هذا العقل ، وضرورة تحقيق هذه السيادة في عصر كان لا يرى من سبيل للخروج به من محنة تخلفه غير بناء هذا العقل على أسس مغايرة للسائد ، وسليمة ، إلى جانب تأكيده على مال هذا العقل من مكانة في التاريخ ، وتأثير في مسار هذا التاريخ .

ولعل هذا النظر منه إلى العقل ، وما تحقق عنده من إيمان مطلق به . هو الذي دفعه إلى أن يتبنى كل فكرة تتصل به ، سواء ما كان منها من « إنتاج الاستشراق » ، أو ما جاء في سياقات فكر «عصر الأنوار» . ويتجلى هذا عنده في محاولته «المطابقة» . ذاتياً وفكرياً ، بين «حرية العقل» و«انجاز العقل» مطابقة تسعى إلى استبدال «نظام معرفي» سائد بآخر سواء كان قد وجد نواته في تفكير بعض مجايليه ، ممن شاركهم منازعهم (وبالذات عند أحمد لطفي السيد) ، ومن ثم استوعبهم في إطار «مشروعه» .

كانت السبيل التي رآها إلى هذه الحرية ، وإلى هذا البناء العقلي الجديد هي ذاتها سبيله إلى المعرفة ، لذلك آمن بسيادة هذه المعرفة ، بكل مالها من شمول الفكر .

ولما كانت «المعرفة» وحدها هي التي تغذي «فكرة الحرية» عنده ، فإنه بنى من خلالها ، وعليها . جميع تصوراتهِ . . . فكان يعمل على الملاءمة بين «فكرة الحرية» وبين هذا «الشمول المعرفي» في ما كان يرى له من مبادئ عامة يمكن تحقيقها عن طريق التعليم وإشاعة روح العلم وأجواء المعرفة في حياة المجتمع .

ولكي تجد «دعوته» هذه تبريراً لذاتها أمام المجتمع كان أن جعل لها «قوة القانون» يوم نادى بالعلم حقاً مكتسباً ، وبالتعليم أساساً في حياة المجتمع . وحقاً من الحقوق الطبيعية لأفراده . . يجب أن لا يكون هناك ما يمنعه عنهم . وينبغي عليهم أن يأخذوه .

في هذه المرحلة من حياة طه حسين وتفكيره أصبحت له «شهرته الليبرالية»، سواء فيما يتصل بمفهومه لمعنى الحرية، أو في ما يتركب به عنده «مفهوم الثقافة»، أو تتجسد به «روح العلم»، فكان، في ذلك، قريباً القرب كله من الأفكار التي لازمت «الثورة الفرنسية». . وكان همه، كل همه في هذه المرحلة، كان ينحصر في نطاق محيطه المجتمعي وهوهم يتلخص في أن يجعل من «الأمة المصرية» سيدة نفسها، وإن كان قد اتخذ إلى ذلك سبيل العاطفة الحارة التي كانت تشده «متوسطياً»، فينزع بمصر، تاريخاً وتكويناً ثقافياً وجوداً حضارياً، مثل هذا المنزع الذي بسط من خلاله رؤيته الحضارية / الثقافية. . مشيعاً أفكاره التي عمل على نشرها عبر مختلف وسائل الثقافة وأجهزتها (الصحافة، والإذاعة، والجامعة)، حتى أصبحت «شخصيته الثقافية» شخصية مألوفة في حياة مجتمعه وفي الحركة الثقافية لهذا المجتمع، وقد ارتبطت بما كان يدعو إليه من تجديد في التفكير، ومن فكر جديد.

هذا «المنحى المعرفي» لحياة طه حسين كان أن جعل منه رجل فكر من الطراز الأول. إذ أثبت بالدليل القاطع أن كل «معرفة جديدة» لابد أن تقترب بالحرية الفكرية، وعلى المستوى الإنساني العام، لتصل إلى صياغة مثلى يمكن أن تواجه كل ما يتصل بأسباب «القهر الاجتماعي» للإنسان. وكان يرى في هذه «المعرفة الجديدة» أساساً للحرية ومنطلقاً. فبناء العقل الإنساني عنده هو وحده ما يمكن أن يفضي بالإنسانية إلى التعبير، بفعل ما يكون للأفكار الجديدة من أثر مباشر في بناء شخصية الإنسان وفي تأكيد وجوده الإنساني في ماله من حياة مجتمعية، وبالتالي في إملاء مفهوم السيادة.

من هنا كان العصر قد عدّ طه حسين من أكثر مفكره حداثة. . بأن

كثيراً ما وجدناه يربط هذا «المشروع التحديثي» باسمه وفكره، «ربط معنى» قائم على جوهر يمكن تلخيصه من وهدة التردّي الثقافي والحضاري . فهو، بهذا الإيمان كان قد ميز «نهجه المعرفي» ولم يجعل أفكاره، الكثير من أفكاره، مجرد «ممارسة ذهنية» لتحصيل المعارف واستعراضها . وقد استشارت العصر مثل هذه الرؤية للتقدم، روحاً ومساراً . خصوصاً وأنه كان قد وضع أسسها من خلال طريقين ، يلتقيان عند «حدود المعرفة» وهما :

- طريق التعليم الذي جعل منه «حقاً طبيعياً» للجميع فهو كالماء والهواء تنبغي إشاعته ليصبح «النظام المعرفي» بفعله نظاماً يسود حياة المجتمع ، ويحقق انتقاله إلى مراحل أكثر تقدماً وتطوراً .
- وطريق الثقافة المنافية لكل روح تقليدية . . مقيماً توجهه فيها ، ومن خلالها ، على ما كان يرى للمثقف من دور في بناء العقل الإنساني وسموه .

ومن خلال هذا يمكن فهم الأسباب الحقيقية لإعجاب طه حسين بالفكرين : اليوناني القديم والأوروبي الحديث (ممثلاً بالفكر الفرنسي) ، إذ وجد في تلاقيهما على أرض واحدة ما يحقق للحرية الإنسانية وجودها . ويبني الكيان الإنساني للمجتمع على أسس تحقق لهذا المجتمع دوره الفاعل والمؤثر (وهو ما بنى عليه تصورات في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» التي كانت قريبة من فكرة «المركز والأطراف» بالنسبة لما ينتظر لمصر من تأثير في جيرانها العرب) .

لكن طه حسين الذي كان قد تحمس ، منذ بدايات حياته العلمية ، للثورة على مواضع «الفكر التقليدي» كان على يقين من أن عالماً جديداً قد بدأ . على الأقل منذ أن تم عزل الشيخ محمد عبده عن مجالات الدرس

الأزهري لما كان يثثه من أفكار لم يستسغها هذا الوسط . ثم ظهور أحمد لطفي السيد في الحياة الثقافية والفكرية المصرية من خلال صحيفته «الجريدة» ، فكان أن أراد انجاز حركته التالية ، المكملة من جانب ، والمتخطية من جانب آخر . وكانت الصورة ، كما تبدى لنا من استجماع تفاصيلها ، متشكلة في ذهنه على النحو الآتي :

- إن الحاضر الذي هو فيه مشدود ، بأكثر من رابط ، إلى قيم الماضي القديم التي لم يجد في حالته هو ، امكانية التفاصيل معها على النحو الذي كان يفكر به .

- لذلك لابد من اغناء هذا الحاضر بما يمكن اعتباره ، «رؤية مستقبلية» على طريق الثقافة .

من هنا كان «مشروعه الثقافي» الذي اتخذ عنده بعداً واضحاً ، قد قام ، من حيث الاساس والجوهر ، على كتابين لنا أن نعتبرهما المنطلق التأسيسي لكل ماكان له من أفكار ، وصياغات أدبية وفكرية عبرت عن نفسها بأشكال وصيغ مختلفة . وأعني بهما : «في الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) ، و«مستقبل الثقافة في مصر» (١٩٣٨) . فعلى أساس من هذين الكتابين ، في ما نرى بينهما من صلة في الفكر وتواصل في الأفكار ، تنبغي دراسة طه حسين ، فهي طريقة تصلنا بفكر الرجل ، بنفس الوقت الذي تصون فيه «تاريخ الأفكار» ، بما لها من أبعاد التواصل : فهما كتابان ، على ما بين موضوعيهما ، ظاهراً ، من اختلاف ، يمثلان شيئاً واحداً من الفكر والتفكير . ويقترحان طريقاً مؤدياً إلى ملتقى واحد ، هو : التطور الخاص بالواقع - كما كان طه حسين يريده .

وهكذا كان طه حسين قد وضع نفسه وفكره فوق كل اعتبار غير اعتبار «النموذج الثقافي» الذي تبناه ، ولم يكن هذا الانجذاب منه نحو الغرب ،

مستلبة للآخر، فهي حين تريد بناء «مستقبل الثقافة . . .» تبنيه على أساس من «واقع الاستلاب» هذا للآخر، ثقافياً وحضارياً. لذلك نجده يعتمد إلى تعزيز نظريته هذه بما يعتبره «واقعاً تاريخياً». وقد كانت المعطيات الأساسية لهذا الاستلاب «معطيات إيجابية» بتصوره، وتعتمد بعض الكتابات التي تناوله اليوم على تمثيلها في مثل هذه الصورة^(١).

١ - من آخر ما قرأت، مما يتخذ مثل هذا التوجه، مقال للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي عن كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» الذي يعتبره كتاباً للمستقبل، وإننا، في قراءتنا له، قد أسأنا فهمه (انظر: جريدتي «الأهرام» القاهرية و«الوطن» الكويتية - عدد الأربعاء: ١١ تشرين الأول ١٩٨٩).

طه حسين والفعالية الثقافية في مجتمع النهضة

مما يدهش المتأمل في «مرحلة طه حسين» من الثقافة العربية، أن الكاتب والأديب فيها لم يكن هامشياً، أو يعيش حياته ويمارس نشاطه الثقافي والفكري والابداعي على الهامش، ولا يمثل دوره من خلال ما هو «متاح» له من هامش... بل كان ينظر إلى نفسه في «دورها كاملاً»، وهو «الدور القيادي» للمثقفين.

ربما كانت المرحلة نفسها قد ساعدت كثيراً على تأكيد مثل هذا الدور للمثقف، وجعلته في مثل هذا الوضع الذي كان أن تحولت الثقافة فيه من «إمتياز نخبة» قادرة على احتيازها والتواصل مع معطياتها، إلى «قوة تاريخية» موجهة لحركة الحياة، وممارسة فعلية فيها، فأصبحت الكتابة، بحكم ذلك - بمعياريها: الفكري والأدبي - أفقاً في مجتمع، وافقاً لهذا المجتمع في مايرجى له من تطور ونماء، مسهمة في إغناء الإنسان. فكراً وتطلعات، بما يكفل تحقيق ما كانت ترسمه هذه الثقافة من طريق لتحقيق «نقلة حضارية» ضمن «شروط جديدة».

وحين نعود اليوم إلى تلك «المرحلة»: نقرأها ونتأمل في معطياتها،

نجدها «مرحلة مختلفة»، من داخلها، وليست «مؤتلفة». ولعل هذا «الاختلاف» هو الذي أغناها، فأبعدها عن «التسليم» بالسائد المؤلف، كما جنبها حالة السكون، أو «الامتداد السطحي». إلا أن أبناء هذه المرحلة، في اختلافهم هذا، كانوا أمثلة حية للوعي الذي ساد مرحلتهم، من خلالهم، وبفعل معطيائهم، الفكرية والأدبية. . ليتعرف المجتمع من خلالهم إلى «معنى الاختلاف»، ويفهم «مغزاه» ويدرك «أهميته». لذلك نقول اليوم عنهم: إنهم علمونا الكثير. . وإننا تعلمنا منهم الكثير.

كان المثقف، في تلك المرحلة، ينشق عن الائتلاف، فيختلف، لا يمثّل «تراجعاً» في الموقف والوعي، بل ليكون له «موقفه هو» من خلال «وعيه الآخر» ويجد لما يتخذ من موقف تعليقاته ومبرراته، فهو موقف غالباً ما تكون له «بنيتة الفكرية» و«مقوماته الاجتماعية»، فهو، بالنسبة له «اختيار» ولكل اختيار «قاعدة»، وبفعل هذا التصور، وانطلاقاً منه، نجد مثقفي تلك المرحلة وقد وضعوا أنفسهم في «البنية الأساسية» للحياة في مجتمعهم، فإذا الثقافة، على أيديهم، هي الأساس في حركته، والمنطلق لهذه الحركة، لذلك نجدهم لم يذهبوا بعيداً في تصوراتهم لـ«دور الثقافة» ولا توقفوا طويلاً عند مسألة، علاقتها بالواقع». . فقد كانوا متوازنين مع ذواتهم، متوافقين مع ما في أذهانهم من أفكار عن «بناء المجتمع»، وعن الإنسان.

كان الكاتب منهم يمارس ثقافته، ويعمل على إشاعتها، بجملته مالها من أفكار، أصيلة كانت أم مكتسبة. لذلك نجد كتاباتهم كتابات غنية (فالممارسة تغني الثقافة، وتصوب مساراتها). وكانوا - وهذا أمر مهم - يمتلكون قدرة المبادرة، وقوة الفعالية - فعالييتهم هم في الثقافة وفي حياة المجتمع.

- غير أن السؤال الذي يطرح هنا هو:
- إلى أي مدى يمكن النظر إلى آثار طه حسين باعتباره جزءاً من عملية «النهضة الفعلية» في حياة الثقافة العربية؟ .
 - لاشك أن جواباً دقيقاً عن سؤال كهذا لا بد له من أن يتلمس حدوده في نمطين ، أو منحيين (اتجاهين) من الكتابة لدى طه حسين نفسه :
 - الأول هو ما يتمثل في (أو تمثله) كتاباته القائمة على «فكرة» ، والتي تدعو إلى إحلال فكرة بنقض أخرى سواها .
 - والثاني هو ما تمثله «كتاباته التطبيقية» ، في الدراسة والنقد ، التي تبنى فيها «منهجاً» يقوم على رؤية أساسية ترى أن الأدب «يجب أن يكون صورة الحياة» ، فلا قيمة عنده لأدب مقطوع الصلة بينه - في اعتباره هذا - «وبين الناس الذين يجب أن يتخذوه مرآة يرون فيها أنفسهم وحياتهم كما هي» أو كما يحبون أن تكون «أو كما يكرهون أن تكون»^(١)
 - فإذا ما دعا إلى دراسة الأدب العربي ، شعره ونثره ، دعا إلى دراسته من حيث هو «مرآة لحياة الأمة العربية في طور من أطوارها»^(٢) .
 - هنا ، في هذا المنحى ، تتجلى ، وتتركز الأهمية الأساسية لطه حسين في ثقافتنا العربية الحديثة ، فقد سعى من خلال كتاباته ، المنصبة في هذا الاتجاه ، على أن ينجز «مشروعاً ثقافياً» لعصره من خلال حرصه على ترسيخ «تعبير عربي» يتخذ منه ، على مستواه الشخصي ، منحى في الكتابة «ويجعل للنظر إلى الأدب» عبر التعامل معه ، زاوية محددة . . فكانت رؤيته تتم عبر منظورين : حديث ، وتراثي ، وإن كان غير محدود بمعطياتهما ، وكان ذلك عنده بفعل «مؤثرين» .
 - المؤثر الغربي ، الذي كان الأدب عنده ، بفعله ، «تعبيراً من شخصية صاحبه ، وخلاصة لعصره ، وتصويراً للمثل العليا الإنسانية»^(٣) .

- والمؤثر العربي ، في وجهه ومعطاه التراثي ، بماله من مفاهيم . . . «فيرى الأدب صنعة» يسبق التخطيط فيها التنفيذ ، ويستقل المعنى فيها عن لفظه ، مثلما يراه «محاكاة» تراعي دقة الوصف وأمانة النقل ، وطرافة التصوير وبراعة التشبيه»^(١) فكان ، بذلك ، يمثل «الاتصال» في جانب ، و«الانفصال» ، في جانب آخر :

- الاتصال بالتراث العربي ، في معطياته اللغوية والابداعية .
- والانفصال عنه ، بماله من قاعدة تاريخية ، تتأسس عليها رؤية حضارية كان طه حسين قد سعى إلى إقامة ما هو خلافها . . . وعبر عن ذلك من خلال نزعات اصبحت معروفة ، في الفكر والأدب ، وفي النزوع التاريخي والحضاري .

وإذا ما اعتمدنا ، هنا ، ذلك الاستخلاص ، الذي وضعه واحد من نقاد العصر ، والذي يرى فيه «ما يشبه القاعدة الثابتة» ، وهو يرى «أن النتاج الأدبي الحديث هو بالطبيعة والنوع مرهون مباشرة بطبيعة الثقافة التي تثقفها الأدباء ونوعها ومقدار ماصهروا في نفوسهم منها فجعلوه ذاتياً خالصاً»^(٢) . . . إذا ما اعتمدنا هذه «القاعدة» في النظر إلى طه حسين ، فإننا يمكن أن نفهم حقيقة جانب مما حققه من إضافات سواء في الفكر أم في النظر «إلى واقع مالنا من أدب ، وإلى الأدب بذاته» مفهوماً ومقومات فنية . . . وقد أغنى بهذه الإضافات واقع ثقافتنا الحديثة .

أما إذا كان طه حسين قد قابس الثقافة الغربية والأدب الغربي فإنه ، مع ذلك ، لم يقلدهما ، وإذا كان قد تأثر ببعض ما انحدر إليه منهما من أفكار ، فإنه ، إلى جانب تكوينه هذا وإسهام هذه الثقافة في تكوينه ، لم يضيع أصالته - وإن كان يبدو وقد فارقها في بعض ما اتخذ من وجهات في التفكير ، ومن نظرة إلى التكوين الحضاري والثقافي للأمة العربية . . .

لذلك لم يدر الأدب عنده «على فكر معاد»، ولا قام، على مخزون الذاكرة، والصور المتناقلة، والصور المجتناة من تجارب السلف، والقوالب الموروثة المتجمدة». . بل كان يهمل، في ماكتب، أن ينقي «العبارة العربية»، ويستدر من الأدب أو ما يكتب في الأدب، ما يهزبه كيانه قارئه ويرتقي بإحساسه وفكره إلى ما يعينه على الكشف، وكان يهمل أن يقيم ما يقيم، سواء ما كان رؤية أو ماهر في إطار هذه الرؤية، فيجعل منه سبراً للذات، وتأملاً في مالها من محيط، وقد أعانته الأدب الغربي على هذا، بما عرف من هذا الأدب، في ما قدم من نماذجه التي أراد لقارئه العربي أن يشاركه الإحساس بها، والموقف منها، ناقلًا إليه ماتناهي إلى فكره، وماتشكل منه في صوت نفسه. فكان بذلك كمن «يحقق الاكتشاف» ويرسم الطريق» للآخر لتحقيق الاكتشاف، وفي ضوء هذا المسار الذي اتخذه، نجد أنطون كرم يضعه في تلك الفئة التي أعرفت في القديم العربي إعرافاً أثيلاً، وذوبت في نفسها عبقرية اللغة، ونفذت إلى مكونات الحضارة العربية ديناً وفلسفة وأدباً وتاريخاً وعلماً وفناً، واستنفدت منها طائفة صالحة، ثم انعطفت نحو بوستان الفكر العالمي من حضارة الإغريق قدماً إلى الزمن الحاضر، وطفقت تعتصر وتحتسي وتصب في كؤوسها العربية للجماهير المثقفة الطالعة خلاصات إنسانية نمت العبقرية العربية بعبقريات الأعلام في سائر الأمم. وبدليل أن يث إقتباسها نيراً عليها، فإنها ذوبته وكيفته واستلت من ثقافتها الإنسانية ألواناً من الإبداع»^(٣). . وقد وجدت في هذا الأدب، بمعاييره هذه وماله منها من آفاق، مقياس «النهضة الأدبية الحديثة».

من هنا كان طه حسين «ثورة في المعادلة الثقافية» - على حد تعبير أنطون كرم - وهي معادلة قامت في عصره لابين «التراث» و«التجديد»، بل

بين «التراثوية»، بمعنى الانغمار بهذا التراث إلى حد «التمذهب» له ومن خلاله، و«الثقافة الحديثة»، بوجهها الذي قابس الغرب، فكراً وثقافة، في أكثر من اتجاه.

إلا أن هذه «المعادلة» أصيبت بشيء من الاضطراب في بعض المواقف والتوجهات التي اتخذها طه حسين في ما اتخذ من مسار في الأدب والفكر والتاريخ.

لقد أراد طه حسين أن ينشيء، «ثقافة حية»، غير أنه أضاع الطريق إليها، أو أن هذه الطريق كانت قد اضطربت به، ذلك أن كل مسار جديد إنما يبدأ بما نعتبره «أسئلة حيوية»، حافزة على الفعل، ومكونة لأساسيات هذا الفعل... وهي أسئلة تواجهه به الواقع، وفي الوقت ذاته نتوجه بها إليه، بهدف تغيير «بنية الأساسية» وقد فعل طه حسين هذا في كتابه «في العر الجاهلي» (١٩٢٦)، إلا أنه في كتابه الآخر: «مستقبل الثقافة في مصر» (١٩٣٨) تجاوز تلك الأسئلة المنبثقة من «واقع ثقافة» هي الثقافة العربية في بنائها التراثي، ليصوغ «أجوبة» مفارقة للواقع الذي يتحرك فيه ويبني تصورات من خلاله، فهو لم يصنع أجوبته تلك من خلال ماندعوه «الذاتية الثقافية العربية»، بل عمد إلى صياغتها عبر الابتعاد عن هذه «الذاتية»، بمحاولة تأكيد الانتماء إلى «ذاتية مغايرة» لثقافياً فقط، بل وتاريخياً وحضارياً أيضاً... متمثلاً «صياغته» هذه في إطارين:

- أولهما: إطار الحضارة الشرق متوسطة، التي رأى أن انتماء مصر الأساسي هو إليها، وعلى ذلك بنى صلتها بالإغريق واليونان وحضارة.
- وثانيهما: الثقافة الغربية الحديثة التي وجد فيها ثقافة تعبر عن واقع التفكير الجديد، وتجسد طموحاته التي كان يريد لنفسه، كما يريد لعصره، أن يتمثلها، فيكون بها، ومن خلالها - بدءاً ومعاداً.

أراد طه حسين ، إذن ، أن يؤسس لثقافة مضادة لتلك الثقافة السهلة ، القائمة على «تكرار الماضي» من خلال استعادته واجترار قيمه ومقاييسه . إلا أن تلك «الضدية» كانت قد «تغربت» عن واقعها ، بل وعمدت إلى مايمكن اعتباره «تغريباً للواقع» ذاته في مارسم له من توجه من خلال مااعتباره «تاريخياً» في جانب ، و«جغرافياً» في جانب آخر ، و«حضارياً» في جوانب الصلة واللقاء ، من حيث «الأساس» و«التكوين» .

وتأسيساً على كل مذهب إليه طه حسين ، أذهب فيه ، يمكن القول : إنه أراد «تغيير الثقافة» في مجتمعه «المصري - الذي كان التوجه إليه» من خلال «تغيير تاريخيتها» ، عبر تغيير «تاريخية مصر» ، متجاوزاً بذلك كل مالهذا التاريخ من دلالات وأساسيات ترتبط ، في ذاتية الإنسان المصري ، بما هو ديني «إسلامي» أكثر من ارتباطها بذلك «الخط الوهمي» الذي افترضه طه حسين لارتباط مصر ، ثقافة وحضارة ، بذلك «الوجود المتوسطي» .

وهذه كانت سقطته الكبيرة تاريخياً

إلا أن هذه «السقطة» لا تحول بيننا وبين القول : إن طه حسين كان العنصر الأكثر فاعلية في حياة الثقافة العربية خلال أكثر من ثلاثة عقود من السنين ، كان خلالها «موجة متألفة متطورة متقدمة في تيار عام هونيار البرجوازية المصرية التي كانت تسعى إلى الاستقلال عن انكلترا ، لأن مصالحها الوطنية شرعت تصطدم بمصالح الاستعمار . . .»^(٧) .

غير أن هذا الرجل الذي لاختلف مع من ينظر إليه «على أنه الممثل الكبير والأخير لخط من التفكير»^(٨) ، قد كان ، في حقيقة تكوينه ، «مفكراً عملياً» - على حد تعبير محمود أمين العالم ، الذي يرى «أن دراساته الأدبية والتاريخية والفنية والتربوية إنما هي ، في جوهرها ، فكر في موقف ، ورأي

في تطبيق». فقد كان «قائداً يدافع ويحرك ويحرض، ولولا ملابساته الخاصة لكان له شأن في حياتنا الاجتماعية أعمق أثراً من شأنه في حياتنا الفكرية والأدبية، رغم رفعة هذا الشأن^(١).

-
- ١ - من لغو الصيف - ص ٧٠
 - ٢ - كتب ومؤلفون ص ٦٦ - ٦٧ . .
 - ٣ - ٤ - جابر عصفور - المرايا المتجاوزة . . ص ٨ .
 - ٥ - انطون غطاس كرم - في الأدب العربي الحديث - ضمن كتاب : «الفكر العربي في مائة سنة» - منشورات الجامعة الأميركية - بيروت ١٩٦٧ - ص ١٩٧ .
 - ٦ - المصدر نفسه ص ١٩٨ .
 - ٧ - ٨ - ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة .
 - ٩ - محمود أمين العالم : الإنسان موقف - ص ٨٥ و ٨٦ .

الحرية . . والمجتمع . . والأدب

إذا كان ميخائيل نعيمة قد قال ذات يوم : «إن الحياة هدف وطريق إلى الهدف» ، فإن هدف طه حسين ، الذي جعل منه مذهباً في الحياة هو ، كما حدده بنفسه ، «ظماً إلى المعرفة لاسبيل إلى تهدئته ، وصبر على المكروه ، ومغالبة للأحداث ، وطموح إلى اقتحام المصاعب في غير حساب للعواقب ، وجهر بما أرى أنه الحق مهما كان يعرضني له ذلك من الخطوب ، ثم شعور كأقوى ما يكون الشعور بالتضامن الاجتماعي يفرض علي أن أحب للناس من الخير ما أحب لنفسي»^(١).

ولقد تولد إيمان طه حسين بحرية الفكر وحركة التفكير من اصطدامه المبكر بنقيضهما الذي تمثل له ، أكثر ما تمثل ، في «أسلوب التلقين» الذي واجهه به الأزهر في حياته التعليمية فيه فكان يرى في هذا الأسلوب استعباداً للعقل ، ووضعاً لنير التخلف على الأعناق البشرية . .

غير أنه وجد في «الجامعة المصرية» الانفتاح المنشود على العصر وثقافته . . فكتب أطروحته : «تجديد ذكرى أبي العلاء» التي بث فيها الكثير من آرائه . . والذي ترجع أهميته إلى أمرين ، يحددهما طه حسين بنفسه ، في مقدمته :

- الأول: أنه كتاب يمثل طوراً من أطوار حياته العقلية . .
- والثاني: هو أن هذا الكتاب يؤرخ للحركة الأدبية في مصر، فقد وضعه وفق «خطة مرسومة من القواعد والخطط التي يتخذها علماء أوروبا أساساً لما يكتبونه في تاريخ الأداب» .
ولم يكن ذلك ليتحقق له إلا في ظل الحياة الليبرالية التي كانت عليها الجامعة المصرية، والتي كان التأثير في دفعها في هذا الاتجاه لأول رئيس لها: أحمد لطفي السيد .
كان طه حسين يعتبر «لطفي السيد من أهم الذين وجهوا حياته الفكرية» وذلك من خلال أول مقال نشره له في «الجريدة»^(١) .
وقد كان أحمد لطفي السيد «ينتمي إلى طبقة كبار الأعيان وإلى المستنيرين الذين التمسوا في الفكر الليبرالي الأوروبي، وبخاصة الفرنسي، صياغة ملائمة للنهضة المصرية الحديثة، فوقف حياته يدعو إلى ذلك الفكر ويشجعه مستلهماً فلسفة الثورة الفرنسية ومفكراتها وإنجازاتها فيكون بذلك تياراً فكرياً متميزاً تجلّى في حزب الأمة وكتابات الجريدة»^(٢) .
ومن خلال لطفي السيد و«الجريدة» التقى طه حسين مع فكر «حزب الأمة» الليبرالي، فرأى في هذا الفكر «مشروعاً لحل إشكالية النهضة»^(٣)، هذه الإشكالية التي كان يراها منحصرة في العلم والتعليم . . .
وعلى الرغم من الفارق الطبقي بين طه حسين - المنحدر من أصل ريفي - وأعضاء حزب الأمة - الذين كانوا يمثلون «طبقة الأعيان» وفكر النخبة - فإن طه حسين قد سائر هذا التيار من خلال فكره الذي كان له إسهامه الكبير في تكوين طه حسين بما عرف عنه من اتجاه ليبرالي . . وقد تركزت «الصياغة الفكرية» لهذا الاتجاه - كما استوعبها طه حسين، واتخذ المسار في مالها من اتجاه - في تمجيده «للعقل والعقلانية، والحرية

والتعليم والانفتاح على الآخر^(١). وسنجد طه حسين، في ما بعد، في تكامل حياته الفكرية، يحدو حذول لطف السيد في الجمع «بين ثقافات ثلاث: الثقافة الإسلامية، والثقافة اليونانية القديمة، والثقافة الأوروبية الحديثة»^(٢).

وعلى أساس من هذا التكوين بنى طه حسين مفهومه للأدب، وهو مفهوم تشكل «في ظل الرؤية الليبرالية التي احتضنت طه حسين منذ ممارسته للكتابة في بداية هذا القرن، حين انساق مع فكر النخبة الأرستقراطية التي كان يضمها حزب الأمة، ثم حزب الأحرار الدستوريين»^(٣)، وهي رؤية تقوم على محورين أساسيين:

- الأول: رفضه التقليد.
 - والثاني: يتحدد في ما أراد بناءه من ثقافة جديدة تقوم على «الانفتاح على الثقافة الإنسانية الأدبية مما سيؤدي إلى إعطاء الأدب مفهوماً مجرداً يحاول أن يتجاوز به طه حسين الحدود والفواصل التي تربط بين الزمان والمكان»، وهو مفهوم «يخدم رؤية الليبرالية المتفتحة التي تريد أن تتجاوز مكونات التاريخ الأدبي العربي، مكونات الواقع الثقافي والسياسي المصري، والعناصر التي تتحكم في هذا الواقع»^(٤).
- وقد كان لطف السيد من المؤمنين «بالعقل إيماناً شديداً»، فسعى إلى المعرفة في مصادرها الأساسية، ليقراً «فلسفة القدماء من اليونان والعرب والمحدثين من الأوروبيين». وقد سعى إلى أن يصلح من نفسه - إلى جانب سعيه إلى الإصلاح العام - «فأحطَ عنها من أثقال التقاليد مالا خير فيه» وأحاول أن أشرك الناس فيما أبتغي من هذا الإصلاح^(٥).

أما طه حسين فقد اختلف مذهب في الحياة غير بعيد عما اختلف منه مذهب أستاذه لطف السيد. وأول خصلة في هذا المذهب - كما يقول -

«هي الظمأ الشديد إلى المعرفة (. . .) فأنا لا أحصل نصيباً من المعرفة إلا أغراني بأن أحصل شيئاً آخر أبعد منه مدى وأشد عمقاً»^(١١). وكان الصبر والمغالبة هما خصلته الثانية . . .

وحين وجد طه حسين عن طريق قراءاته في دار الكتب، «من العلم ما لم يكن الأزهر يسيغه»، مستكشفاً «علم القدماء من العرب وأدبهم حتى صرفت عن الأزهر صرفاً، رأيتني ثائراً على الأزهر ودروسه ثورة جامعة لم احسب لعواقبها حساباً، ثم لا أكاد أتصل بالجامعة التي أخشيت في تلك الأيام حتى أكلف بما كان يلقي فيها من دروس أشد الكلف، وإذا خصلته الثالثة من مذهبي في الحياة وهي خصلة التصميم على اقتحام العقبات التي تعترض سبيلي إلى العلم مهما تكن أو أموت دونها»^(١٢).

وتبرز الخصلة الرابعة بعد أن عاد إلى مصر فكان استاذاً جامعياً، وقد كشفتها له الظروف الجديدة، «وهي خصلة الصراحة والجهر وبالحق مهما يكن مرأى ممضاً والنضال في سبيله مهما يثقل هذا النضال ومهما تكن عواقبه».

وهنا دخل طه حسين الخصومة من جميع أبوابها، وألم بأطرافها . . . فإذا هو يخاصم في السياسة وفي الإصلاح الاجتماعي، ويخاصم في تجديد العقل المصري، وتغيير منهجه في البحث والدرس، ويخاصم «في نقل المناهج الغربية الحديثة» ليفرضها «على دراسة الأدب والتاريخ في مصر»^(١٣). . . «وإذا أنا أثير الخصومات واحفظ الصدور وأغري الناس بنفسي، وألقى من ذلك الجهد والمشقة وأغضب في وقت واحد كثرة البرلمان وصاحب القصر، ولكني لا أحجم ولا أتردد، وإنما تزيدني المحنة إقداماً وتصميماً»^(١٤).

أما الخصلة الأخيرة التي عرفها طه حسين من مذهبه في الحياة، فهي

- كما يقول - «حبي الآن أرى الناس جميعاً مثلي في الشوق إلى العلم والاستزادة منه والوصول إليه دون أن يجدوا مثل ما وجدت من المشقة، ودون أن يمتحنوا بمثل ما امتحنت له من ضروب العناء». وحين أتيت له «المشاركة في ذات يوم، وإذا أنا أستحي أن ألقى الناس بغير ما عودتهم من المطالبة بنشر التعليم وتيسير المعرفة للناس جميعاً، فأبذل في ذلك كل ما أملك من الجهد وأترك السلطان إلا وقد استقر في نفوس الناس أن العلم حق لهم يجب أن يكونوا جميعاً سواء في القدرة على أن يطلبوه أحراراً، لا يجدون في سبيله مشقة مهما يكن لونها»^(١٦)

على هذا النحو يلخص لنا طه حسين مذهبه في الحياة بما عرف من طبيعة نفسه: «ظماً إلى المعرفة لاسبيل إلى تهدئته، وصبر على المكروه، ومغالبة للأحداث، وطموح إلى اقتحام المصاعب في غير حساب للعواقب، وجهر بما أرى أنه الحق مهما يعرضني له ذلك من خطوب، ثم شعور كأقوى ما يكون الشعور بالتضامن الاجتماعي يفرض علي أن أحب للناس من الخير ما أحب لنفسي»^(١٧)

وبفعل ما اجتمع له من هذه الخصال، كان طه حسين من أشد المؤمنين بحرية الفكر، المدافعين عنها، والداعين إليها، مبشراً بمبادئ الحياة الحديثة التي وجد أننا مدفعون إليها «دفعاً عنيفاً». فتلمس الطريق الذي يمهد للعقل العربي سبيل التحرر والخروج من حالة التقليد. لكنه وجد الطريق إلى أوروبا هي سبيل هذه الحياة التي «تدفعنا إليها عقولنا وطبائعنا وأمزجتنا التي لا تختلف في جوهرها قليلاً ولا كثيراً منذ العهود القديمة جداً عن عقول الأوروبيين وطبائعهم وأمزجتهم»^(١٨).

وفي تصوره لحضارتنا القادمة (في استفتاء مجلة «الهلal» لعام ١٩٣١): «حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أو غربية...» ذهب طه حسين

إلى أن المثل الأعلى في ما يعتقده «هو أن نحفظ من الحضارة المصرية القديمة بما يلائمنا من الفن ، ومن الحضارة العربية بالدين واللغة ، وأن نأخذ من الحضارة الأوروبية بكل ما نحتاج إليه» . . . ويجد أن «ليس في هذا شر مادماً نحفظ بشخصيتنا المصرية ، فلا تفسد علينا هذه الحضارة الأوروبية حياتنا على أننا أمة لها مقوماتها الخاصة . . .»^(١٧).

وقد تدخلت هذه النظرة في تحديد العديد من مفهوماته . . . ومنها مفهومه للحرية فالحرية ، عند طه حسين ، هي «حرية العقل» . . . فهو منذ أن أعلن عن موقفه في مرمى إليه وهو يؤكد هذا المعنى :

- «أريد أن لا تقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان . والفرق بين هذين المذهبين في البحث العظيم . ، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضى ، والشك الذي يبعث على الاضطراب ، وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود ، المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل ، ولا يمس في جملته وتفصيله إلا مساً رقيقاً . أما المذهب الآخر فيقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحونه شيئاً كثيراً .»^(١٨).

فالحرية عنده «لاتؤمن بالقواعد الموضوعية والحدود المرسومة» ، وعلى ذلك فهو لا يقبل من القيود على الأدب «إلا هذه القيود والحدود التي يفرضها على الأديب مزاجه الخاص وفنه الخاص وهذه الظروف التي تحيط بمزاجه وفنه فتصور أثره الأدبي في الصورة التي يخرجها فيها للناس»^(١٩).

لقد ارتبط مفهومه للحرية بهذه الرؤية ، فأصدر عنها . . . وقد ربط بين الأدب والحرية حين رأى أن «أخص ما يمتاربه الأدب أنه حر بطبعه لا يقبل لحرية قيده ولو كان من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريم»^(٢٠).

وبذلك كان قد رفض كل ما يهبط بالأدب إلى الحياة، ويتواصل مع الإنسان في ماله من خصوصيات الواقع ومشكلات الحياة، فهو يرفض تسخير الأدب لأغراض الحياة، كما يحددها أصحاب نظرية «الأدب الملتزم»، ويرى «أن الحياة التي ينبغي أن يتجه إليها الأدب والتي تيجع إليها بالفعل، كما يتجه إليها العلم والفن والفلسفة، إنما هي حياة الجماعات الإنسانية من حيث أنها جماعات طامحة بطبعها إلى الرقي والسمو إلى الكمال بقدر الطاقة في جميع فروع النشاط الذي تبذل فيه جهودها على اختلافها»^(٢٣).

وعلى ذلك فهو يرى أن الناس يقبلون على الأدب، قراءة وتذوقاً، «ليغذوا عقولهم وقلوبهم ويمتعوا نفوسهم وأذواقهم، وليشعر كل منهم بأن له ساعة يؤثرها على ساعات النهار والليل كلها لأنها تشعره وتسعده بأنه إنسان بالمعنى الصحيح الدقيق الرفيع لكلمة إنسان»^(٢٤).

ويواصل رده على نظرية «الأدب الملتزم» وماتراه من طبيعة الصلة بين الأدب والواقع، «والأديب وقضايا المجتمع»، فيرى أن الأديب «ليس وسيلة ولا ينبغي أن يكون وسيلة، والأديب لا ينشئ أدبه ليحقق هذا الغرض أو ذاك، ولا يبلغ هذه الغاية أو تلك، وإنما الأدب غاية نفسه، والأديب يكتب لأنه لا يستطيع إلا أن يكتب»^(٢٥).

وعلى هذا النحو تتحدد نظرة طه حسين إلى الأدب. . وهي نظرة لا ترى من مهمة للأدب إلا مهمتها الجمالية، ولا ترى من غاية له غير «الغاية الفنية». . وليس لهذه الغاية ما هو أبعد من تحقيق المتعة الفنية للعقل والقلب جميعاً»^(٢٦).

فهو في الوقت الذي يرى فيه أن «الأديب لا يحس لنفسه وإنما يحس للناس، وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر

للناس»^(٢٥) . . فإنه، مع ذلك، يرفض تلك الواجهة التي تراها نظرية «الأدب الملتزم» . . ويقول:

- «فأما أن يسخر الأدب فيكون وسيلة من وسائل الإصلاح أو سبيلاً من سبل التغيير في حياة الشعوب . . فهذا تفكير لا ينبغي أن ننساق إليه»^(٢٦) .

وهو، في هذا الذي يراه ويذهب إليه ينطلق من قناعته بأن «الفرد ظاهرة اجتماعية»، وهي النظرة ذاتها التي قال بها أستاذه في السوربون: «أميل دوركهيم» الذي استعار طه حسين منه هذا المبدأ، وبنى عليه نظريته إلى الإنسان، باعتباره «ظاهرة اجتماعية»، وبين الأدب - الذي يصبح، بهذا المفهوم، «اجتماعياً» أيضاً - ليؤكد أن «الانتاج الأدبي ظاهرة اجتماعية»^(٢٧) .

ولكنه شديد التأكيد على «عنصر الجمال» في الأدب، فالأدب - في مفهومه - «لا يكون إلا جميلاً لأن طبيعته تقتضي ذلك، وهو لم يوجد إلا ليسمو بالنفس إلى حيث تشهد المشاهد الرفيعة من الجمال، شأنه في ذلك شأن غيره من الفنون الجميلة الأخرى . .»^(٢٨) . وفي هذا تظهر «انطباعيته» . . صاحبة الأثر في تكوينه الأدبي - و«تأثيرته» التي وجهت تذوقه الأدبي وتحكمت بمنهج النقد، ذلك أن ما كان يهم طه حسين هو «الأثر» الذي يحدثه هذا الأدب في نفس متلقيه . . أما «الموضوع» «فليكن، بعد ذلك، ما يكون - كما يقول - «فليس يعني من الأدب إلا أن يحدث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني هذا من هذا الشعور الرفيع بالجمال . .»^(٢٩) ،

لقد أشبعت الحرية عقل طه حسين ونفسه فطبعت فكره وتفكيره بطابعها، وقد عاش حياته طبقاً لمثله العليا جامعاً في نفسه وفكره بين مبادئ الحرية، كما عرفها ووعاها، وبين فضائل النهضة والتطور، كما أدرك منطلقاتها وتعرف إلى بنياناتها . . فقدس الحرية، ومجد العقل، حتى لقد

عارض بذلك عقيدة مجتمعه التي بلغت به حدود المفارقة والافتراق، ولكنه كان موقناً أن عهد محاصرة الحرية، ومحاصرة العقل موشك على الزوال. وقد جعل من المعارف والعلوم والمناهج الحديثة أساساً في ماكان يراه من إيذان لهذا الزوال . . .

وانبرى له في ذلك، وعلى هذه الطريق التي مشى «خصوم وخصوم . . ولكن معظمهم لم يقارع الحجة بما ينقضها، أو يثبت مايراه لها من نقيض، بل اكتفوا بأن زندقوه. وجردوه من الإيمان . .

لقد كان طه حسين ابن «مرحلة انتقالية»، لذلك «كانت شخصيته ووقائع حياته تجسيدا لقيم الالتقاء بين ثقافتين، والانتقال بين عهدين». و«في عصور الانتقال والصراع لا يكون هناك مفر من مهاجمة القديم بقسوة (. . .) ومثل هذا الهدف كان قطعاً من ذهن طه حسين حين خاض معاركه الشهيرة ضد سلطة القيم الفكرية التقليدية . .»^(٣٠).

وقد جعل طه حسين من «سؤال الحرية» في الثقافة العربية الحديثة سؤالاً هامشياً، من جهة، لأنه أبعد، أو ابتعد به عن واقع الصراع الاجتماعي وحقيقته . . ومن جهة ثانية كان هذا السؤال «سؤالاً متغرباً» لأنه بناه على رؤية تتخطى واقع العقل العربي والثقافة العربية، وتذهب «غرباً» حيث تجد مالها في الثقافة الغربية، والحضارة اليونانية، وفي ما ترسمه لمصر من «حدود تاريخية» شرق متوسطة بحتة لاصلة لها بالتاريخ العربي . . وتضعها في هذا الاطار نفسه جغرافياً، وفي ضوء هذه الفكرة كانت ممارساته الفكرية في ما اتخذت من آفاق الفكر والحياة . .

وقد اهتم طه حسين اهتماماً واضحاً بصياغة نظريته هذه في مفاهيم ورؤى منهجية ضمن ماكان يراه لها من شروط تاريخية، مبرزاً، ومؤكداً على العلاقة بين هذا المفهوم وما رآه من مجرى تاريخي . . .

وما يمكن استخلاصه من مشروع طه حسين الثقافي هو ما برز في تأكيده على مجموعة من القيم والأفكار والمبادئ التي رأى فيها عوامل أساسية لنهضة مجتمعه، وقد تركت أكثر ما تركت على العلم والتعليم، مقتبساً مالها من معايير في الحضارة الغربية والثقافة الغربية، التي كانت تشكل عنده - بقيمها الفكرية ووجودها التاريخي - نموذجاً فذاً للحياة التي ينشد.

هوامش

- ١ - هذا مذهبي - كتاب الهلال - ص ٤٣ - ٤٤ .
- ٢ - أحمد بو حسن - الخطاب النقدي عند طه حسين - دار التنوير - بيروت ١٩٨٥ - ص ٢٦ .
- ٣ - المصدر نفسه - ص ٢٧ .
- ٤ - المصدر نفسه - ص ٢٥ .
- ٥ - المصدر نفسه - ص ٢٨ .
- ٦ - المصدر نفسه - ص ٣٠ .
- ٧ - ٨ - المصدر نفسه - ص ١٥٧ .
- ٩ - هذا مذهبي ص ٢١ .
- ١٠ - ١٥ - : ص ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .
- ١٦ - طه حسين - مستقبل الثقافة في مصر - ط أولى - وج ١ - ص ٣٧ - القاهرة ١٩٣٨ .
- ٢٧ - أحمد علي - طه حسين رجل وفكر وعصر - دار الآداب - بيروت : ١٩٨٥ ص ٤٤٥ (و«الأمة» التي يعينها طه حسين هنا هي «الأمة المصرية» ، كما يحددها مفهومه ، وليست الأمة العربية التي لم يكن يقر لها بالوجود الموحد «والكيان الثقافي والحضاري والتاريخي الواحد - أو ، في أحسن الحالات ، لم يكن يرى «مصر» من هذا الكيان ، ولا في هذا الوجود) .
- ١٨ - طه حسين - من تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٠ - وج ١ .

- ١٩ - طه حسين - فصول في الأدب والنقد - ص ٤٢ .
- ٢٠ - ٢١ : طه حسين ، خصام ونقد - ص ٥٣٢ و ٦٠٧ .
- ٢٢ - ٢٣ : نفسه - ص ٦١٣ و ٥٦٥ .
- ٢٤ - نفسه - ص ٢٢٢ .
- ٢٥ - طه حسين - أديب - ص ٥ .
- ٢٦ - طه حسين - خصام ونقد - ص ٥٩ .
- ٢٧ - طه حسين - فصول في الأدب والنقد - ص ٥ .
- ٢٨ - ٢٩ : طه حسين خصام ونقد - ص ٣٨٥ و ص ٣٨٤ .
- ٣٠ - د . فؤاد زكريا - قيم النهضة الفكرية عند طه حسين - مجلة «الأداب» س ٢٤ - ع ٣ (آذار ١٩٧٤) .

الخصوصية القومية . . . والحرية الفكرية

. . ودرس طه حسين «علم الاجتماع» ، متأثراً بأبرز أعلامه في فرنسا: «إميل دوركهايم» . وكتب، في مجال هذا العلم، كتابه عن «ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية» . . وأقام العديد من كتبه، ونظراته في الأدب والفكر على أساس من معطيات هذا العلم . . .

لذلك يمكن النظر إليه ، في إطار «مشروعه الثقافي» يهدي من معطيات هذا العلم . ذلك أن «عالم الاجتماع» يعتقد دائماً أن من واجبه تطوير «مناخ جماعي» ييسر «الانتاج وبعض الأشكال المهمة» من التلبية الإنسانية في آن واحد . . .^(١)

لكن . . هل كان طه حسين ، في ما اتخذ لنفسه من توجه ، يبني على فرضية ترى أن عملية التحول والنهضة تدعو المجتمع إلى تجاوز وضعه التاريخي ، وأشكال ثقافته ، وأخذ نفسه بما يراه «فكرة حيوية» كان يدعو جتمعه إلى تلبيتها؟ - كما يفترض «علم الاجتماع» في حالة كهذه .
- لقد كان هذا بذاته هو ما اختط من سبيل عن طريق الثقافة والفكر . وهو ما طرح عليه حتمية انتاج «ثقافة بديلة» كان يرى فيها صورة «المجتمع الجديد» الذي راوده حلم تكوينه .

غير أن طه حسين في ما كان له من تصور ورؤيا كان قد اصطدم بتقاليد ثقافية قاسية، هي تقاليد «ما قبل الحديثة»، فمثلت بما كان لها من وجود وتأثير، مقاومة عنيفة له ولمشروعه، وكانت تلك «التقاليد» تمثل حالة صيرورة اجتماعية مكرسة على نحو جعلت المجتمع خاضعاً لنظامها، وكان طه حسين، من جانبه، يحاول التغلب على هذه المقاومة بأساليب ليبرالية... فاعتمد، أول ما اعتمد، «الحوار» الثقافي والفكري، ولكنه اصطدم بعقول لم تكن مروضة على قبول فكرة الحوار. هنا كان خط الافتراق بين العقليتين كبيراً، والمسافة شاسعة... لذلك كان اللقاء على أرض ما يفرضه الحوار من أساسيات، صعباً، بل مستحيلاً:

- فنقطة الانطلاق في تفكير طه حسين كانت تقوم على منجزات العقل الليبرالي الغربي، وما فتح أمام الفكر الإنساني من آفاق المعرفة...
- بينما كان منطلق «الطرف المضاد» يقوم على «مبدأ التراكم»، التاريخي والتراثي... وكان العقل المتبني لهما يرى في كل من هذا التاريخ والتراث «نظاماً من الثوابت» غير محكوم بالتغير. فمثل هذا الطرف ما يمكن أن ندعوه «الأفق المغلق».

إلا أنه كانت هناك - كما افصحنا عن ذلك المرحلة نفسها - إمكانية لتطور آخر: فإذا كانت أعراف الحياة التقليدية قد كرسَتْ وضع المواجهة الكلية والشاملة لذلك «المشروع الليبرالي»، فإن منظوراً آخر للتطور والتقدم، متلائماً مع طبيعة الحياة العربية تاريخياً وحضارياً، كان قد بدأ يفرض منطقاً على واقع الحياة في المجتمع العربي، ساعياً إلى تطوير أشكال هذه الحياة وصيغها إنطلاقاً من أسسها الخاصة، في أخذ مبدأ «الخصوصية» التاريخية والحضارية، بنظر الاعتبار، فطرح، من خلاله، العديد من المفاهيم الخاصة بنظرية التطور، وبناء الحياة، وبالتغيير - على

أساس من قدرة التقرير الذاتي الذي لا يتعالى على الواقع، ولا يلغي خصائصه انطلاقاً من رفض ما هو فيه . . . بل يعمل على تغييره والانتقال به إلى المرحلة المرجوة . .

هذا التيار- الذي اكتسب تسميته من خلال الوجود التاريخي للأمة العربية فأصبح يعرف باسم «التيار القومي» - لم يقم على فرضيات مجردة . . إنما أخذ توجهاته بمبادئ واضحة، وفي الأساس منها «مبدئيتها» التي تفترض، في حالة التغيير والثورة لإقامة شروط الواقع الجديد، عدم تجاوز «الواقع التاريخي» الذي بنت عليه «تقريرها الذاتي» المتلائم مع شرطها الحضاري الجديد .

هنا، مع هذا التيار وانطلاقاً منه، كان الموقف من الغرب قد حتم نوعاً من «جدلية الصراع» القائم على موقف . . وهو صراع بين «الذات العربية» بما لها من كيانية ثقافية - حضارية - تاريخية، و«الآخر» بأشكاله الاستعمارية المختلفة .

وعلى ضوء هذا الصراع - أونتيجة له - تحدّد «مستقبل الثقافة العربية» بمنظور آخر، غير المنظور الذي أسس عليه طه حسين وجهته، وكان هذا «المستقبل» ممثلاً للإمكانية القائمة على أساسيات «المشروع القومي» الذي ربط مسألة «النهضة الجديدة» بالارادة العربية، التي رأى، من منطلقاته، أنها يمكن أن تكون «إرادة صيرورة»، فكرية واجتماعية وحضارية جديدة، بنفس الوقت الذي تخلق فيه شرطها التاريخي الجديد، فلا تقف موقف امتثال للغرب - كما فعل طه حسين .

هنا بدأ «الفكر القومي» معركته على جبهتين أساسيتين، ورئسيتين :
- الجبهة السياسية - بتعدد القضايا والمشكلات التي يطرحها البعد السياسي للواقع العربي (الاستعمار، التجزئة، والتخلف . . الخ) .

- والجبهة الثقافية ، التي كان هذا التيار يرى فيها أساساً لبناء الواقع الاجتماعي العربي الذي كان توجه «الأخر» (الغرب) يرسم خارطة تفتيته . فكان هذا التيار يرى أن تحقيق «الشخصية القومية» مرتبط بتحقيقتها الحضارية . . وأن كل تكوين ثقافي جديد يجب أن لا يفصل لا عن هذه الشخصية ، في بعدها الإنساني والتاريخي ، ولا عن حقيقتها الحضارية - بما لها من عمق ذاتي .

وإذا كنا نسعى وراء التمييز الحاسم بين «ثقافة» طه حسين و«الثقافة القومية» كما طرحها تيارها الفكري ، فإننا نجد الواقع الاجتماعي العربي الذي يمثل «حدود القطيعة» بين الثقافتين :

- فعلى الرغم من أن طه حسين كان قد أعلن ، في فترة مبكرة من حياته الفكرية وفي إطار مسؤوليته التربوية ، أن العلم كالماء والهواء ، حق للجميع - وفي ضوء ذلك أشاع مجانية التعليم - فإنه ، من جانبه الذاتي ، كان يتبنى ماتدعوه بعض الأدبيات : «الثقافة الرفيعة» التي كان توحى ببعد آخر للواقع ، إذ إن لها من خصائص التفكير ما لكل «ثقافة مجردة» . فهي ثقافة تتعالى على التجربة اليومية للإنسان ، وإن كانت «تقيّمها» من بعض وجهاتها .

- أما «التيار القومية» - ومعه الاتجاه الواقعي في الثقافة والأدب - فإنه أقام «مشروعه» على أنماط أخرى من الرفض ، متبنياً فكرة إعادة تكوين الوجود الواقعي للأمة ، لذلك لم يفصل عامل الثقافة عن عالم الواقع ، ولا ابتعد بحياة الأدب والفن عن وجود الإنسان . . . بل كان يرى فيها جميعاً مجالات حيوية يمكن للإنسان من خلالها أن يعيد إنتاج نفسه : بقوته وضعفه ، بحياته وبؤسه ، وبحلمه وما يواجهه من قمع ، لتكون الثقافة ، ويكون الأدب والفن امتيازاً لهذا الإنسان ، وليس «امتيازاً عليه» . .

ولعل أبرز ما كان لهذا التيار - في ووضح اتجاهه الواقعي - عمله على الغاء تلك المسافة التي كانت بعض الاتجاهات تقيمها بين الثقافة والفنون والآداب وبين «ما هو يومي»، بمعنى من معاني نظام الحياة الإنسانية للمجتمع .

يضاف إلى هذا، أن «الأخر» (الغرب الثقافي)، بأبعاده الحضارية الجديدة وإنتاجه الثقافي والفكري، لم يعد ضمن «نظام الهيمنة» عقلياً على الأقل . . . بل أصبح «بعداً آخر» في «التكوين المعرفي»، يوحى بتلك المسافة التي باتت متحققة أكثر بين الشرق والغرب .

ومع أن هذا «التيار القومي»، بنزعته الواقعية هذه، قد عاد إلى «التراث»، فإن عودته لم تكن «عودة استلاب» له من هذا التراث - كما كان الحال مع التيارات التقليدية في الثقافة العربية - ومع أنه اهتم بشخصيات الماضي، فإن هذا الاهتمام لم يدفعه إلى إخراجهم من مقابرهم ليعودوا إلى الحياة ممارسين «فعلهم التفكير» فيها . . بل كانت كل من تلك «العودة» وهذا «الاهتمام» بمثابة استدعاء للعناصر الأساسية الحية في ذلك الماضي، بهدف خلق التواصل بين حاضر الأمة وماضيها، وإغناء لتجربتها الحاضرة بما كان لها من عناصر الماضي .

- وقد خاض طه حسين معركته الفكرية مع هذا التيار الذي كان على غير ماكان عليه، ووجد فيه «قوة نقیضة» لمشروعه، ومغايرة لنزعته التغريبية - التي كان لا يمثل البعد الحقيقي للثقافة التي يريد إلا من خلالها .

وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرتين ثقافيتين بارزتين :

- الأولى : ونستطيع أن ندعوها بظاهرة «الاستلاب الثقافي» - بمعنى من معاني الانعطاف نحو الغرب، مع رفض الخصائص الثقافية الأساسية المتشكلة من خلال واقعه الأصل .

- والثانية : هي ظاهرة «التمثل الثقافي» التي كانت تنطلق من «تاريخيتها» ،
ناهضة بذاتها الحضارية ، من جانب ، ومن جانب آخر توفير شرط الحماية
لهذه «الذات القومية» من الوقوع تحت منطق الهيمنة الخارجية .
هذا كان خط الافتراق الأساسي ، والمهم :

- فالثقافة العربية مع هذا التيار - به ، ومن خلاله - لم تعد تعيش في «كمالها
المجرد» بعيداً عن المجتمع الذي كان يتلقاها باعتبارها شيئاً منفصلاً عنه
- في مآخذ لنفسها من اهتمامات - فلم تعد «مسافة العلو» قائمة ، ذلك
لأن الثقافة والمجتمع - في منظور هذا التيار - غير قابلين للانفصال
فأصبح الجوهر فيها وثيق الصلة بواقع الصراع الذي كان هذا الإنسان قد
بدأه على أكثر من مستوى من مستويات الحياة في واقعه : سواء على
مستوى حياته الاجتماعية ، أم على مستوى حدود «العلاقة مع الآخر» .
وإذا أخذنا بما يراه «ماركوز» نقول : ان «التناقض هو من عمل العقل
(. . .) ومادام التناقض هو من عمل العقل - المواجهة العقلانية بين «ما هو
غير كائن» مع «ما هو كائن» - فلا بد أن تكن هناك وسيلة لجعله قابلاً
للإيصال ، والطليعة تناضل لايجاد هذه الوسيلة - أو هي بالأحرى تناضل
حتى لا يمتص العالم الأحادي البعد تلك الوسيلة - وتحاول أن تخلق
انفصلاً أو بعداً قادراً على أن يجعل الحقيقة الفنية قابلة للإيصال من
جديد . . .»^(١)

وفي الوقت الذي كان فيه طه حسين يدين «الثقافة القمعية» متمثلة
بالثقافة التقليدية ، بأساسها السلفي ومنظورها التوثيني . . فإنه ، نفسه ، قد
مارس هذا «القمع» بكيفية أخرى حين تبنى «موقفاً ثقافياً» حصرياً ، بمعناه
وبمبناه أيضاً . فهو في الوقت الذي كان قد طرح «حرية أكبر» . أولنقل : بعداً
واضحاً للحرية في الثقافة والتفكير ، كان أكثر ابتعاداً عن «تاريخية واقعه» ،

بل عمد إلى أن يجعل هذا الواقع في نطاق «تاريخية أعمق» وكان «الغرب الثقافي» يمثل لطفه حسين «التعالى الذاتى» - بينما كان «التيار الآخر» يرى في هذا الغرب «عالماً معادياً» في جوهره .

إن مانجسد طه حسين يتجاهله هو «الواقع التاريخى» لمجتمعه ، وللمنطقة العربية (التي عمد إلى عزل مجتمعه عنها) ، وبالأخص فيما يتصل بمعنى «الحرية» . فمادام الاستعمار يتوطن في الأرض ، ويدير الحكم فيه ، ويوجه السياسة ، فمن العبث الحديث عن الحرية في إطارها المجرد . فالشعب لم يكن يريد اكتسابها «مفهوماً» بل كان يريد «واقعاً متحققاً» .

فوق هذا ، فإن طه حسين في حديثه عن «الاسكندر المقدونى» في كتابه : «قادة الفكر» كان كمن يقف ضد الحرية بمعناها الاجتماعى هذا .

- من هذا يتبين لنا أن طه حسين لم يحبط «المفاهيم التاريخية» وحدها ، أو ينحرف بها عما ينبغى أن يكون لها من مسارات في واقع مجتمعه . . . بل انحرف بواقع هذا المجتمع ، تاريخياً وحضارياً وثقافياً ، بما يمكن أن يجعل منه مجتمعاً معادياً جذرياً لتاريخه الفعلى .

- ومع تأكيد طه حسين على العقل ، فإنه لم يستخدم هذا العقل إلا في أضيق نطاق ممكن .

- فقد استخدمه فيما شن من هجوم ضد التاريخ العربى .

- واستخدمه باعتباره مظهراً من مظاهر «الحرية الفكرية» ، وإن في إطارها المجرد . .

- واستخدمه ، كذلك ، عاماً للتطور في إطار «المنظومة الثقافية» التي بنى عليها أساسيات «مشروعه الثقافى» - أعني التحليلات والاستنتاجات التي وجدها قادرة على الحيلولة بين «الإنسان المصرى» وبين اتحاده الشامل في «الهوية العربية» .

وكان طه حسين ، في هذا كله ، يخشى ماتدعوه بعض الكتابات المعاصرة «مفاهيم الذاكرة» ، وذلك بفصل «الواقع القائم» عما له من تاريخ في هذه «الذاكرة» ، ومن «مفاهيم» شكلها حضوره ، فالذاكرة ، هنا ، تختزن من الوقائع ، والعلاقات مايشكل لها «منظومة مفاهيمية» ، وأي انبثاق عنها يعني ارتباطاً بها ، قد يتجلى في «أشكال جديدة» . . كما تتجلى المخاوف والصبوات . .

- المخاوف التي يفرضها الوجود الاستعماري في ما يلقي من ظلال قاتمة على مسألة العلاقة بالغرب .

- أما الصبوات فهي في هذا التجلي الإنساني الذي كانت مظاهره في طرح أسئلة النهضة ، هذه الأسئلة ، التي كانت رداً على واقع الانحطاط ، ورسماً لطريق الخروج من حالة التبعية .

لقد وجد طه حسين «فكرة النهضة» في مجتمعه مرتبطة ، بالضرورة بمبدأ التقدم . فعمل على أن يتجاوز «الشرط التاريخي» لمجتمعه - وهو شرط مبني على فكرة التخلص من الاستعمار وتحقيق الاستقلال الوطني - بانياً «شرط التقدم» هذا على «العلاقة بالغرب» ، على أساس من تلاقي الصبوة مع العقل ، واقتران الفكرة بالواقع المتحقق ، لتقوم النهضة المرجوة لمجتمعه على فكرة «الاكتساب» التي قد تقود إلى حالة من حالات التبعية ، لا الثقافية والحضارية وحدهما ، بل والسياسية أيضاً .

- وهذا يعني ، من جانب آخر ، «تصفية الذاكرة» من كثير من «مقوماتها القديمة» ، بوصفها مخلفات «زمن مرفوض» أو «واقع» يراد تجاوزه .

١ - هربرت ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد - ترجمة جورج طرابيشي - ط ٣ -

دار الآداب - بيروت : ١٩٨٨ - ص ٦٢ .

٢ - المصدر نفسه - ص ١٠٢ .

الحرية . . ومفهوم العلاقة الآخر . .

يمكن تسمية المرحلة التي جاء طه حسين في أعقابها بأنها «مرحلة يقظة الوعي» ، فهي مرحلة لم تقبل بما كان سائداً قانوناً أعلى للفكر والتفكير . . إلى جانب وضعها العصر كله ، فكراً وتوجهات ، موضع تساؤل - وإن لم يكن ذلك التساؤل قاطعاً ، كما كان الأمر مع طه حسين وجيله .

أما طه حسين فقد جعل لأسئلته مصطلحات أخرى ، لعل أبرزها مصطلحا : «الحقيقة» و«الزيف» . ومع أن الجيل السابق عليه أن يعي «تاريخية» مرحلته ، إلا أن هذه «التاريخية» قد تحددت عنده ببعد موضوعي - يتمثل بأسئلته الأساسية حول بناء الدولة ، والحرية ، والعلاقة بالآخر - إلا أنها «من وجه آخر» كانت قد تحددت ببعد أخلاقي - تمثل ، أكثر ما تمثل ، في : النظرة الدينية ، وأخذ الأمور بمعيار عدم التناقض مع المفهوم الديني ، والبعد الذي تمثله «الحقيقة الترائية» ، لذلك وجدنا جيل «النهضويين الأوائل» يضع «مشروعه» ضمن شروط محددة سلفاً «منظوياً» بفعالها ، على القبول بمعايير ذات صلة بما كان للواقع الاجتماعي العربي من معتقد .

أما جيل طه حسين - وهو منه بوجه خاص - فقد وضع «مشروعه» ضمن شروط التطور ، كما أدركها ووعاها . فهو وإن كان قد قبل بمعايير

الأخر، (الغرب)، باعتبارها معايير أولوية، فإنه جعلها معايير على صلة بما كان يريد للحياة العقلية في مجتمعه من تطور، لذلك نجده يستخدم «الموارد الفكرية» من خلال ما اعتبره شروطاً موضوعية لهذا التطور. ولكن هذه المعايير (باعتبارها معايير تاريخية) كانت تبني درجات من الاختلاف هو «واقع الاختلاف» نفسه بين المجتمعات التي انتجتها، والمجتمعات التي تتلقاها.

لقد عمل طه حسين على صياغة «سؤاله» بطريقة بدا فيها وكأنه «سؤال المجتمع»، في مارآه «حاجة عقلية» لهذا المجتمع، ولكنه، في الآخر كان يقدم «جوابه الخاص» الذي لم يكن جواباً مبنياً على ما ندعوه، «استقلالاً ذاتياً» - يحكم خضوعه لما كان يمليه الوقوع تحت تأثير الآخر من تكيفات فكرية. فكان طه حسين يريد خلق الشروط بنفسه: الشروط التي يبني عليها أساسيات التفكير والتوجه في مجتمعه - وهذه أعلى دكتاتوريات العقل.

ننظر إلى هذا بمثل هذه النظرة من خلال «مجتمع» يشكل «الإحساس بالاضطهاد» عنده ما كان يحول بينه وبين تحطيم أغلال عبوديته للوصول إلى حريته، ولم تكن محاولة طه حسين، ومعه بعض أبناء جيله - التي بدت، في ظاهرها، محاولة تحريرية على نطاق العقل - لم تكن غير فرض لسلطة «عقل الأخرى»، حيث جاء بفكرة كلية أراد إقامة «الوعي بها» ليس على أساس «وعي العبودية» التي هو فيها بل من منطلق «وعي الحاجة»، واضعاً التاريخ موضع تكيف لمنحنياته الفكرية بقصد «استبدال الارتباطات» فيه بسواها، وبما يغير الكيفية الحقيقية له.

لذلك نستطيع القول هنا: إن دعوة طه حسين إلى التحرر - مع الوعي بالحاجة إلى التحرر - كانت تنتظم في حركة تقصد إلى غاية تتحدد بتغيير

«الشروط الفكرية» لمجتمعه ، ولعله كان يفكر بمثل هذا حين كتب «مستقبل الثقافة في مصر» (بين ١٩٣٦ و ١٩٣٨) حين تكلم عن «متوسطة مصر» ، وعن عناصر تكوينها الثقافي ، وبالتالي عن إنتمائها الحضاري ، متجاوزاً بذلك التناقضات الأساسية في مجتمعه ، جاعلاً من «مشروعه» ، الثقافي والحضاري ، «إختياراً تاريخياً» اعتمد فيه اعتماداً أساسياً على فرضية تقوم على ربط مصر ربطاً وثيقاً بالغرب المعاصر ، سواء من ناحية العودة التاريخية ، أو في ما يتصل بما يريد لها من بناء فكري حديث ، وبالتالي ، فإن ذلك يعني «تبعية مصر» لهذا الغرب ، لأنها في نطاق ما كان قائماً من وضع ، اجتماعي وفكري وسياسي ، كانت «تبعية مبررة» بمنجزات العلم والفكر والثقافة - التي كانت تمثل «انتاجية متنامية» أراد لها أن تتخذ مسارها إلى مجتمع سكوتي ، راكد ، لم يكن يعرف سبيلاً للخلاص .

وهكذا وجدنا ذلك المجتمع ، في بعض من مناصل التفكير فيه (وطنياً وقومياً) يتصلب ويرفض هذا «الاختيار» . مما قاد الحياة - أو اندفع بها في اتجاهين متقاطعين ومتغايرين :

- اتجاه يتبنى مائراه قريباً من الانغلاق على الذات ، متمشلاً بالتيارات السلفية التي ظهرت في ثقافتنا العربية الحديثة .

- واتجاه يتبنى منطق التقدم ، ويدعو إلى التطور - وإن من موقف مغاير للموقف الذي اتخذه طه حسين - بأن جعل الحركة تتجه إلى الواقع العربي ضمن شروطه التاريخية ، بدليل أن تكون حركة حبيسة في «انتاجية الآخر» (الغرب) . وقد ازدادت هذه الحركة قدرة على خلق شروط تحركها ، وبالتالي شروط واقعها بما تعبر به عن نفسها كحركة تحمّل التناقض مع واقع التخلف ، إن لم يكن «الثورة» عليه . . وتصبو ، من وراء ذلك ، إلى «حضارة عصر جديد» يبنها وجدان قومي يريد لمنجزات هذه

الحضارة أن لا تكون غريبة عما له من أرض ، فلا تستنبت استنباتاً ، بل تكون انبثاقاً .

مع هذا التيار بالذات تحددت المعالم الواضحة للحياة العربية ، بما فيها توجهات في صياغة «معنى الحرية» و«مفهوم التقدم» و«الدعوة إلى التحرر» - فكانت مختلفة إختلافاً جوهرياً عما دعا إليه طه حسين وتبناه .

لكننا لا نستطيع ، بأية صيغة من صيغ التفكير ، اعتبار هذا الضرب من التوجه - الذي اتخذ طه حسين وبعض من مجايليه - مجرد «حركة» في سياق التغيرات ، أو أنه كان «نتيجة عقوبة» لفكرة التقدم - كما وعاما وأرادها - لأننا نأخذ كل «تغيير» بما يكون له من «أسس» ، ونعني بذلك «الأسس الفكرية» التي تقوم عليها أية حركة تغيير ، فهذه الأسس هي التي تمكن «الحركة» - أية حركة - من بسط (ولا أقول: فرض) طبيعتها على أرض الواقع . . .

وعلى الرغم من أن مشروع طه حسين الثقافي كان قد أخذ نفسه ببعدين أساسيين ، ظاهرين ومعلنين ، هما : العقل والحرية ، وبما كان لهذا العقل عند الإغريق من مكانة تأثر بها^(١) .

غير أن طه حسين وقد بنى رؤيته الفكرية ، والنقدية أيضاً ، على أساس من معطيات هذا العقل ، كان له أن جعل من «مقاله» «مقالاً سياسياً» ، بمعنى مافيه «مضمون» وماله من «غاية» يسعى إليها من خلال هذا المضمون الذي كان متناقضاً ومضمون البنية الفكرية للثقافة العربية .

وقد أدرك طه حسين (وهنا يتجلى حسّه السياسي) أن هذا الفكر لا يستطيع أن يخلق التغير والتغيير المرادين إلا من خلال الممارسة . فعمد إليها في مجالين رئيسيين ، هنا : الصحافة والجامعة ، فكان يكتب في الصحافة ما يشبع نظرتة إلى الأشياء ، ويؤكد موقفه منها . أما في الجامعة

فكان يشبع رؤيته المنهجية، باذراً بذورها في هذا الوسط العلمي، لتنبئ جيلاً، بل أجيالاً كان لها أن تأثرت به، فصاغت عقلها صياغات غير بعيدة عن مراميه، إن لم يكن بعضها في الجوهر منها. وقد بنى طه حسين عقله على أساس انطولوجي، ومنه، وبفعله أتقن «فن التأمل» في ما يتصل بالنظر إلى الأدب. كما أتقن فن «النظر النقدي» بهدي ما اعتمد من «نظرية».

وإذا كانت «وظيفة العقل هي تحديد فن الحياة - كما يرى هويتد - فإن هذه «الوظيفة» تتحدد، أولاً، بالحاجة الماسة إلى الحياة، وإلى الحياة الحسنة، ثانياً، وإلى الحياة الفضلى ثالثاً.

لقد وجد طه حسين العقل العربي شبه معطل عن القيام بوظيفته التاريخية، فكل ما كان له من وظيفة هي «قمع الحاجة إلى الحياة، إلى الحياة الحسنة، والحياة الفضلى» - بحسب تعبير «ماركوز» - فهو، في ما كان سائداً من معطياته، عقل يتميز «بامتنياز اللاعقلانية» - في معايير وتوجهاته - والحياة السائدة ثقافياً هي «الحياة الشعرية». أما اجتماعياً فهي «الحياة الدينية» التي تمثل، في حالة المجتمع العربي، «عالم السيطرة»، وخصوصاً في مصر إبان تلك المرحلة.

ولكن طه حسين كان، منذ البداية، قد مثل نزعة الانفصال عنها. لذلك نجد مجتمعه - من خلال الفكر السائد فيه - لا يمثل له غير «رابطة أولية» يدرك من خلالها، عوامل الانفصال، عنه وليس «الاتصال» بما كان لهذا المجتمع من منظومات فكرية تمثل وعيه كله - أو بتعبير أدق: كل ما كان يراد من وعي تمليه «المؤسسة» بما تفرض له من حدود، وتعين من شروط.

من هذا كان وعي طه حسين وإدراكه قائمين على ما كان يجده من «انفصال» بين «الواقع»، بصيغته المحدودة، المعنية التوجه، وبين

«الممكن» في إطار ماله من احتمالات تقف بين «الحقيقة الظاهرة»، أو المعطاة، و«الحقيقة الأصيلة» الكامنة في مالعقل من جوهر.

ومن الوعي بهذا، ومن إدراكه ربما كان ماأراده طه حسين من إقامة الانفصال بين مصر وعروبته، بالمعنى الجغرافي والتاريخي والحضاري، ملحقاً إياها بما رآه له - وعمل على تأكيده - من «كيان متوسطي» يمثل امتدادها التاريخي والحضاري، والجغرافي أيضاً. . إلى جانب مايشكله في أساسيات بناء عقلها. .

وإذا كنا قد أخذنا الأشكال الأولى التي لبسها هذا الانفصال بمنظور سياسي، فإن مقصد طه حسين الأساس لم يكن سياسياً بالدرجة الأولى - وإن لم يخل منه - بقدر ماكان «فكرياً» - وإن كان هذا «الفكري» سيقوده، بالحثم، إلى ماهو سياسي، ويؤدي إليه - هدفه منه إيجاد الترابط، أو تحقيقه، بين «عقل» يراه قابلاً للتطور والتقدم (هو العقل المصري) و«عقل آخر» متحقق في هذا الميدان، ومتجه على الدوام نحو عالم أكثر عقلانية. ولم يكن ذلك ممكناً أو مقبولاً في إطار عالم قائم على «المثل». فإذا قلنا، بالنظرة الفلسفية، إن «المثل» ميتافيزيائية الطابع، فإن «قيم العقل» عقلانية، علمية - وهذا التناقض الحاد الذي أراد طه حسين أن يحسمه بهذا «الانفصال».

إن الحرية، عند طه حسين، منوطة بتكوين هذا العقل الذي هو تكوين يرتد إلى «مفكرة السيطرة» من خلال البحث عن عوامل الارتباط بالآخر (اليونان والإغريق في القديم، والغرب الأوروبي - وفرنسا بوجه خاص - في الحديث)، مما يجعل هذا «العقل المرتبط به» متمكناً من «العقل المرتبط»، بحكم تطور الأول، وتقدمه، و«انتاجيته الأعلى» - إذا جازت لنا استعارة التعبير من العقل الاقتصادي.

لذلك فإن «مشروع» طه حسين، الذي وضعه موضع «الاختيار التاريخي»، كان مشروعاً لامتناهٍ كل الاختيارات الأخرى، بديلة كانت أم تاريخية، وهذا هو ما يفصح عن العمق السياسي لمشروعه هذا. فهو مشروع «ناقل للسيطرة»، بما يخلق لها من «عالم كلي»، يتيح للعقل أن يسود بطريقة استبدادية، بحكم كونه «مشروعاً بديلاً».

فالعقل (عمقاً فكرياً)، والحرية (حالة وموقفاً) هما المظهران الجميلان اللذان البسهما طه حسين لمشروعه، وتحرك بهما ومن خلالهما، في رسم الأبعاد التي أراد، ولكنه بدل أن يبني العلاقة - علاقته بهما ومن خلالهما - بالغرب الأوروبي على أساس جدلي، نظرة وموقفاً، كان أن بناها على شيء من واقع «التبعية للآخر».

لقد كان المجتمع العربي يدعو نفسه، ويتحرك برغبته إلى التطور، وإلى الأخذ بأسباب التقدم. . وأن كلاً من هذا التطور والتقدم يمكن أن يغير آفاق الحياة، ويحدث فيها الكثير من التبدلات. فماذا أراد طه حسين؟ وإلى ماذا دعا في هذا السياق؟.

لقد دعا الحياة في مجتمعه إلى أن تبني صيرورة مختلفة اختلافاً جوهرياً عن «صيرورتها التاريخية»، فما كان يشير إلى التقدم والتطور عنده هو تبني تقاليد ثقافية مغايرة هي تقاليد «الغرب الثقافي» التي أراد بها، ومن خلالها أن ينتج «تماثلاً» - وكان طريقه إلى ذلك هو انتاج «عقل منفصل» عن تاريخه (بحكم عملية استبدال أرادها من خلال التأكيد على انتماء مصر المتوسطي، وليس العربي)، مما ينتج عنه «نظام عقلي» يجمع بين الظاهرة الثقافية، في تعينها الغربي، وبين الدعوة إلى الحرية. ولم يكن ذلك عنده مشروطاً بالاستقلال الذاتي.

إن استيعاب طه حسين لمفهوم الحرية على هذا، والعمل على تأكيد

«دلالته الواقعية»، من خلال ما أخذه بها من سياقات تتصل بالفكر والعقل أكثر من اتصالها بالواقع، وقد ظل بنتيجة «فكره المجرد» هذا، يستخدمها في إطار «المفاهيم العامة» متخذاً منها «أداة» لفهم الأشياء، وتعيين شروطها، وإدراك أوضاعها الخاصة بدلالة احتمالاتها سواء منها المضمرة أو الواضحة، إلى جانب ما تفتح عليه العقل من امكانيات تاريخية وما فوق تاريخية، فبالحرية كشف عن الكثير من الإمكانيات التي هي بمقدور العقل، ولكنها ملغاة من «عالمه»، أو منفية عنه (بحكم نفيه عنها). ومالجوء طه حسين إلى ماهو تاريخي، أو ما يقع في سياقات التاريخ، غير عمل منه على تأكيد ما كان يراه، ويؤمن به من «استمرارية تاريخية» للأفكار، وما يمكن أن يكون لها من تأثير داخل «مجتمع محدد». فجوهر الفكر عنده «جوهر تاريخي»، مع أنه لم يخضع للمنظور التاريخي في بعض ما كان له من وجهات وأفكار، إذ نجده ينظر- إلى العقل الأخص- من مستوى التجريد الفلسفي فيرى إلى إمكانياته إمكانيات تتساوى وتتعدل، من حيث الأساس... ولكنها تحتاج إلى ما يتحرك بها، أو يحركها- وهو عنده هنا، «قوة الفكر».

وطه حسين، في مساره هذا، لم ينف «الشروط التاريخية»... بل بالعكس كان قد رآها شروطاً لا تكف عن ممارسة تأثيرها، أو أنها يجب أن لا تكف عن ممارسة هذا التأثير (ولكن من وجهة مغايرة تماماً لما هو عليه الواقع التاريخي) وليست عودته بمصر إلى ما رآه لها من «تكوين متوسطي»، بكل ما في هذا من مكونات حضارية وأخرى عقلية، غير تأكيد من لهذه «الشروط التاريخية»، فمشروعه، على مستواه هذا، «مشروع تاريخي» من ناحيتين:

- أولاً: من ناحية البحث عن «تكوين جديد»..

- وثانياً: من ناحية العودة بهذا «التكوين الجديد» «إلى مارآه له من جدور» .
تعيدنا إلى «اختلافات» ، ممكنة وقائمة ، لهذا التطور الذي رأى أسسه
في «الحضارة المتوسطية» ، التي هي نفسها من يمكن أن يملّي - أويحقق -
شروطه الحاضر، ولم يكن «مشروعه الثقافي» أكثر من «عملية تفاعل» ،
جدية ومثابرة ، لتفاعل متبادل بين «ذاته» - وهي ذات مفكرة - وبين «العالم»
الذي رأى «صورته الثقافية» متمثلة فيه . ولم يكن ذلك غير سعي منه لتوكيد
«القيمة الموضوعية» لمنظومة المفاهيم التي تبناها، وأشاعها .

١ - «إن العقل في الفلسفة الإغريقية الكلاسيكية هو الملكة العارفة . فهو يتيح
معرفة ماهو صحيح وماهو خاطيء . . .» . (انظر: هيربرت ماركوز - الإنسان ذو
البعد الواحد - ترجمة جورج طرابيشي - ط ٣ - منشورات دار الآداب -
بيروت : ١٩٨٨ - ص ١٩٦٥) .

النزوع إلى الغرب

حين وصلت القاهرة - في طريقي إلى «المنيا» ، بدعوة من جامعتها للمشاركة في المهرجان الرابع عشر لطله حسين - وجدت مجلة «الهلال» تستفتي في الموضوع الذي كنت أحمله معي إلى «المهرجان» ، والذي ركزت البحث فيه على كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» (١٩٣٨) . . وقد وجدت الآراء مختلفة ومتباينة في كتاب طه حسين هذا . . ووجدتني أكثر حرية في الحديث عنه بما رأيته ، وهو أنه كتاب يمثل «الظاهرة الاستشراقية» ، في الفكر العربي الحديث ، بما يرسمه من استراتيجية ثقافية يتمثل فيها الغرب ، وما يمكن أن يكون له من أثر في «ثقافة مصر» ، وبالتالي في الثقافة العربية . . .

انطلقت فكرة هذا الكتاب - كما يؤشرها طه حسين في أولى صفحاته - مما يراه من أننا - على مرحلته - «نعيش في عصر من أخص خصائصه ما يوصف به أن الحرية والاستقلال فيه ليسا غاية تقصد إليها الشعوب وتسعى إليها الأمم ، وإنما هي وسيلة إلى أغراض أرقى منها وأبقى ، وأشمل فائدة وأعم معنى» . . . وماتضيفه - أو تسعى إليه من خلال ذلك هو «الحضارة التي تقوم على الثقافة والعلم ، والقوة التي تنشأ عن الثقافة والعلم والثروة التي

تتجها الثقافة والعلم». يجد أن الثقافة والعلم هما أساس الحرية والاستقلال. (ج ١ - ص ٢).

أما الاهتمام الحاضر - كما هو على فترته - بهذا الكتاب، فيعود إلى أمرين:

- أولهما: إنه كتاب جاء يطرح مشروعاً ثقافياً يستهدف بناء الحياة العقلية في المجتمع (المصري - على وجه التخصيص - وما ينتظر أن يشكله على نطاق المجتمع العربي ككل).

- وثانيهما: أنه، ومن داخل هذا المشروع، كان قد طرح نزعة إقليمية ضيقة، بل تجاوزت هذه الإقليمية إلى ما يشكل انفصلاً لمصر عن الجسم العربي.

وكان هذا التوجه من طه حسين قد جاء في مرحلة أخذ فيها الفكر العربي «يوضح معنى القومية العربي ويحاول تعريفها وتحديدتها ويبحث في عواملها وعناصرها. وقد خاض المفكرون العرب في هذه الموضوعات لإرضاء رغبة فكرية ملحة عند الناشئين والمثقفين من العرب للتعرف إلى ذاتهم وتبيان معالم شخصيتهم القومية، وليدافعوا، ثانياً، عن القومية العربية، ضد هجمات المذاهب القومية ذات الطابع المحلي أو الإقليمي، ويميزوا، ثالثاً، بين القومية العربية والعصبية الدينية». / أديب منصور - الفكر العربي في مائة عام - بيروت ١٩٦٧ - ص ١١٧.

أما طه حسين هذا فقد جاء ليقول ما هو على النقيض من هذا كله، ويعلن الموقف واضحاً في وجه ذلك الانماء الذي عرفه «الوعي القومي» و«الفكر القومي» في كتابات مفكري المرحلة.

كتب طه حسين كتابه هذا في مرحلة من حياة الفكر العربي والثقافة العربية كان فيها كل من هذا الفكر وهذه الثقافة قد خرجا مما ندعوه «انغلاقاً»

و«سلفية» (بالمعنى الأدبي ، لا الديني) ، وبدأت طلائع التجديد في الثقافة والفكر والابداع الأدبي تأخذ امتداداتها في الواقع العربي ، وقد كان ماسمي بالتيار الإبداعي (الرومانسي) في الأدب العربي يقدم معطياته التي اعتبرت بثاً لروح جديدة في هذا الأدب ، كما أن «الدرس الأدبي» نفسه كان قد اتخذ منحى جديداً ومجدداً على يد طه حسين وجيله .

ولكن الغريب في الأمر هو أن يأتي هذا الكتاب متزامناً مع نمو تيارين متضادين ، أحدهما نقيض الآخر ، ومناوئ له :

- التيار القومي ، في الحياة والفكر والأدب ، وهو تيار نظر إلى الأمة العربية في سياق وحدتها التاريخية ، ثقافياً وحضارياً وجغرافياً .

- وتيار «الظاهرة الاستعمارية» التي بدأت تأخذ بعدها الاستراتيجي في السيطرة على الأمة العربية ، وتجزئ واقعها ، وتكريس هذا الوجود من خلال أكثر من وسيلة ، ومنها : التعليم والثقافة .

وإذا كانت «الخصائص الوطنية» هي التي طبعت توجهات طه حسين في كتابه هذا ، فإن هذه «الخصائص» لم تتخذ صيغتها «الوطنية» بالمعنى الذي ساد المرحلة من خلال «الحركة الوطنية» التي برزت في تياراتها الأساسية الداعية إلى الحرية والاستقلال والسيادة .

وإذا كان طه حسين في توجهه هذا قد نفى ، أيضاً ، «العوامل القومية» نفياً كلياً من «مشروعه الثقافية» هذا ، فذلك لأن «العدمية القومية» كانت نزعة فعالة في نفسه وفي تفكيره . . . ولأن «فكرة القطيعة» مع الفكر العربي والتيار الثقافي العربي النزعة والتوجه . . بل والتكوين الحضاري العربي قد لعبت دوراً بارزاً في بناء فكر طه حسين وفي رسم توجهاته . فكانت هذه الفكرة أساساً في تحديد خصائص مشروعه الثقافي الذي قدم فيه اعلانه الواضح عن الانقطاع والاتصال بثقافة - أو ثقافات أخرى من خلال «نزعة إقليمية» في

جوهرها (بعزل مصر عن الكيان العربي ، ومحاولة انتزاعها من تاريخها العربي) . . وإعلان «واقع التبعية» للآخر (من خلال نزوعه الشرق-متوسطي ، ثقافياً وتاريخياً وحضارياً . . بل وجغرافياً أيضاً) .

لكن . . هل بمقدورنا القول - تأكيداً - إن ماجاء به كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» يمثل تنافراً مع تصورات طه حسين ، في مارآه في تراثنا العربي من معطيات ؟ .

إذا ماعدنا إلى الكتاب الذي شكل معلماً أساسياً من معالم تفكير طه حسين ، وأعني به «في الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) ، سنجدده يسعى إلى أن ينهج في ذلك الكتاب نهج التجرد «من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً» ، إلى جانب ماقتفى من منهج كان ، من خلاله ، يحاول مصانعة مفكري العصر الحديث في الغرب ما اتبعوا من «منهج فلسفي ، قائم على مبدأ «الشك الديكارتي» ، للبحث عن حقائق الأشياء» - كما يقول :

غير أنه : ومن خلال «منهجه المتبنى» هذا كان قد تطرف ، تاريخياً وحضارياً ، بما اتخذ من دعوة ، حيث ظهرت البوادر الأولى لعدميته القومية حين دعا إلى أن «نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه «بنسيان» قوميتنا وكل مشخصاتنا ، وأن ننسى ديننا وكل مايتصل به ، وأن تنسى مايبضاد هذه القومية ومايبضاد هذا الدين» .

ففي رأيه أن علينا «أن لانتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح ، ذلك أنا إذا لم ننسى قوميتنا وديننا ومايتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين» .

إلا أن طه حسين نفسه يعل عقولنا في كتابه الآخر «مستقبل الثقافة في

مصر» وهو ينظر إلى مصر في إطارها المتوسطي ، لا العربي ، وينتمي بها إلى «الغرب الثقافي» ، وأن مصر عنده كانت «دائماً جزءاً من أوروبا» في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها» / مستقبل الثقافة في مصر - ص ٢٦ .

فهل من صلة يمكن أن نجدها بين الكتابين : «في الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) و«مستقبل الثقافة في مصر» (١٩٣٨)؟

- إن كلاً من الكتابين جاء معتمداً «على خطة محكمة تحمل تصوراً نظرياً واضحاً . وقد سعى طه حسين إلى تحقيق تلك الخطة بمختلف الوسائل المنهجية التي اعتمد عليها» . / أحمد بوحسن - الخطاب التاريخي عند طه حسين - ص ١٠٧ .

- وكلاهما له بنيته الواضحة : ففي الأول يقدم «مشروعه لقراءة النص العربي القديم ، مكثفاً فيه ما استقر عليه في هذه المرحلة التأسيسية من القضايا النظرية النقدية» . . وكذلك هو في الكتاب الثاني : «يقدم تصوره لعالم ثقافي يراه هو العالم النموذجي» / نفسه - ص ١٠٧ .-

- وإذا كانت قراءة طه حسين للشعر الجاهلي قد اعتمدت على :
١ - «وصف وضع الأدب ودراسته في مصر والمناهج التي عرفت الساحة الثقافية في مصر» .

٢ - ضرورة إصلاح الوضع الأدبي في مصر .

٣ - عرض مقاييس تاريخ الأدب وتبني المقياس العلمي والفني .

٤ - «اشتراط الحرية لدراسة الأدب ، كما هو الشأن بالنسبة للعلوم التي تدرس ذاتها» . / المصدر السابق - ص ١٠٧ - ١٠٨ .-

. . فإن ذلك لم يكن غير تمهيد منه سبيل اللقاء مع أوروبا ، والدعوة إلى النظر إلى أنفسنا من خلال «النموذج الأوروبي» . وقد ركز طه حسين في

قراءته هذه على مبدأ «الجمال الفني» وضرورة قراءة النص الشعري العربي وفقه ، مع تجاوز مكوناته الأخرى جميعها . ولم تكن هذه «القراءة الفنية» التي دعانا إليها ، والتي تستبعد المكونات الأخرى للنص غير محاولة منه لتحديد النصوص - وهي الوجه الآخر لدعوته إلى الانفتاح . والتقارب الثقافي والعقلي بيننا وبين الغرب على أساس النصوص الأدبية ، وتجاهل كل واقع آخر قد يثير الخلاف - وهو يثيره فعلاً .

- هذه النظرية التجريدية من طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» - والتي تعتمد على قبول «الظاهرة الأدبية» مع الشك في وجود أصحابها - تلتقي مع نظريته التي اعتمدها في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» . وهي نظرة تقوم على النظر إلى البناء الثقافي ، التعليمي والعلمي ، على أساس «احلال النموذج» ، بنقله والأخذ به ، وليس بتمثله .

- وكما عمل طه حسين من خلال كتابه «في الشعر الجاهلي» على أن يعيد بناء التاريخ الأدبي العربي ، فإنه في «مستقبل الثقافة في مصر» عمل على إعادة بناء تاريخ مصر من وجهة مغايرة للحقيقة الحاضرة لهذا التاريخ . . رابطاً تاريخها (الثقافي ، والحضاري ، والجغرافي) بالتاريخ الشرق - متوسطي في القديم (الإغريق واليونان) ، وبالتاريخ الغربي في الحديث (الثقافة وأساسيات التوجه الحضاري الجديد) . وهو الاتجاه نفسه الذي تبناه أدبياً حين عمد إلى «ربط التاريخ الأدبي العربي بالتاريخ الأدبي الأوروبي ، وطبق على النص الأدبي العربي ماطبق على النص الأوروبي من مناهج ساهمت في إعادة بناء التاريخ الأوروبي ، مدفوعاً إلى ذلك بطموحه العلمي إلى تجاوز القراءات التقليدية السائدة في دراسة النص العربي» / أحمد بوحسن - المصدر السابق - ص ١١٨ / .

وحين نتابع طه حسين في نظريته إلى الأدب والثقافة ، وإلى مالها من

مضمون حضاري ، نجده ينظر «نظرة أفقية» إلى جانب مافيه من تبسيطة
فهو لا يرى «في الحضارة الغربية إلا نتائجها» ، في حين يلغي الكثير «من
الشروط المادية والتاريخية والذاتية التي صنعتها» / نفسه - ص ٨١ / .

فمن الاشارات المهمة في هذا السياق ، والتي تكشف عن معالم
نظرتة الأفقية التبسيطة هذه مايرام في فلسفة أرسطو طاليس التي يؤكد على
أنها كانت «أساس النهضة العربية الأولى وأساس النهضة الأوروبية في
العصر الحديث» ، ويذهب - بناء على ذلك - إلى وجوب أن يكون أساس
النهضة العلمية في مصر الحديثة .

- وفي السياق ذاته ، من الفكر والنظر ، يستوقفنا حديث طه حسين عن
الاسكندر المقدوني في كتابه «قادة الفكر» حين يعتبره إلى جانب كونه
فاتحاً فعلياً وناشراً للعقل اليوناني . . فلولا ما عرف الشرق اليونان . فهو -
كما يراه - رجل حاول المزج بين الشعوب من خلال العمل على إزالة
ما بينها من فوارق سياسية وجنسية ، داعياً إلى المزاوجة بين الشعوب
المختلفة . فهو - كما يقول طه حسين - لم يكن يفتح الأرض وحدها ، بل
يفتح العقل أيضاً من خلال فتحه الأرض ، ومن هنا فهو يعتبره «قائد
فكر» ، كما كان قائد جيش ، وقد وفق إلى قيادة الفكر ما لم يوفق إليه في
قيادة الجيش» وهنا عبرة تاريخية يجب أن يتفكر فيها من يريد أن يتعظ
ويقدر الأشياء كما هي .

- هذه النظرة منه تستوقفنا بما تحمل من توجه إلى صياغة «يقترحها للنظر
إلى قادة الحروب والفاتحين . فهل كانت هذه هي نظرتة إلى «الاستعمار
الحديث» ، وإلى وجوه له مثل وجه «نابليون بونابرت» مثلاً ؟ .

نخضع هذا التساؤل في سياق مثل هذه النظرة - أوفي مواجهتها -
ونحن نجده يرتب من النتائج على أعمال الاسكندر المقدوني ، من خلال

نظرتة هذه إليه ، وهي نظرة تتلخص في «أن التفاهم قد حصل بين الشرق والغرب رغم الفوارق السياسية والاجتماعية» ، معيداً ذلك إلى «التفاهم العقلي الذي محا تلك الفوارق» .

ولم يكن طه حسين ، في كثير مما كتب ، إلا ساعياً «إلى نوع من المصالحة» بين الشرق والغرب» عن طريق الفكر والثقافة «انظر: أحمد بوحسن - المصدر نفسه - ص ٨٥ - ٨٩ / .

فهل كان طه حسين ، في مسار مثل هذه النظرة إليه ، ممثلاً لتزعة استشراقية ، ومنتدباً نفسه لفكر استشراقي في الثقافة العربية الحديثة؟

هل كان طه حسين «ظاهرة استشراقية»؟

ونحن ننظر إلى طه حسين في ضوء مالا استشراق من رؤية وموقف، نجد أنفسنا ملزمين بالعودة إلى الأصول، أو ما يمكن أن ندعوه «أصولاً» في هذا السياق من النظر والبحث. . . ونعني بذلك المرحلة التي تكوّن فيها طه حسين تكوّنه الأساس (ونعني بها مرحلة الدراسة في فرنسا)، وهي المرحلة التي شهدت نمو حركة الاستشراق وانتظام توجهها، في مصر ومن خلال التوجه إلى مصر بالذات، وماتداعى إليه منها من مبادئ فكرية جرى على تنميتها من خلال تبنيها، وبثها في كتاباته باعتبارها «أفكاراً أساسية». . . وإذا كانت علاقة طه حسين بفكر الاستشراق قد بدأت في فترة مبكرة من حياته، على أيام دراسته في الجامعة المصرية، فإن تلك «الأفكار الأولى» التي تلقاها من خلال «كارلونيون» و«لويس ماسينيون» قد وضعت الأساسيات التي بنى عليها توجهاته إلى التراث العربي وأفكاره عنه. والتي عمقتها (إلى حد التبني لها) محاضرات «مرجليوث» عن «الشعر الجاهلي». فإذا ما نظرنا إلى «الاستشراق بوصفه نمطاً من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه» - كما يراه إدوارد سعيد - فإننا يمكن أن نجد في كثير من أفكار طه حسين «إسقاطاً آخر» لهذا «الاسقاط الغربي على

الشرق». فكانت بعض كتبه بمثابة «ممرات» لأفكار الغرب عن الشرق، وعن الأدب العربي والثقافة العربية على وجه الخصوص. وإذا كان همّ الاستشراق الأول هو «أن يعبر عن قوة الغرب وضعف الشرق - كما يراهما الغرب» إدوارد سعيد، الاستشراق - ص ٧٦. فإن ذلك هو ما كان في الصميم من تفكير طه حسين. وما حكم فكرته عن كل من الشرق «في أدبه وثقافته» والغرب (في ثقافته وحضارته ومعطيات تفكيره).

- فمن أساسيات هذه «النظرة الاستشراقية» تقسيم الواقع الانساني إلى «ثقافات، وتواريخ، وتراثات، ومجتمعات، بل وحتى أعراق مختلفة اختلافاً صريحاً» (الاستشراق - ص ٧٦)، وهو ما عمد طه حسين إلى تأكيده في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

ومن المفيد هنا أن نعود بالمسألة إلى جذورها، في محاولة لتلمس بذورها الأولى، فتتمثلها من خلال ما كتبه «فورييه» في مقدمته لكتاب «وصف مصر» (وقد كان «فورييه» أميناً لمعهد مصر الذي أسسه نابليون كجزء من مشروعه في غزو مصر والسيطرة عليها وعلى عقلها، بل وتوجيه عقلها بما يخدم أغراض حملته عليها)، يقول فورييه، راسماً الخطوط الأساسية التي يراها من خلال الاستيلاء على مصر:

- «لقد قدر نابليون حق قدره الأثر الذي سيتركه هذا الحدث على العلاقات بين أوروبا، والشرق، وأفريقيا، وعلى الملاحة في البحر المتوسط، وعلى مصير آسيا. وأراد نابليون أن يقدم مثلاً أوروبياً نافعاً للشرق، وأن يجعل حياة السكان، في نهاية المطاف، أكثر سعادة، وأن يستحضر إليهم أيضاً جميع المزايا الكامنة في حضارة وصلت إلى درجة الكمال. ولم يكن ممكناً تحقيق شيء من هذا كله دون التطبيق المستمر على

المشروع للآداب والعلوم، إن (النص من ترجمة كمال أبو ديب - انظر: الاستشراق - ص ١١١).

إن كتاباً مثل كتاب «وصف مصر» أراد - كما يؤشر ذلك أدوارد سعيد - أن يزيح «التاريخ المصري أو الشرقي عن موضعه من حيث هو تاريخ له تماسكه الداخلي والخاص، وهويته، ومعناه، مقتلاً إياه، محلاً محله، عبر توحيد هويته هو، مباشرة، وبصورة فورية، بتاريخ العالم - وهو اسم استبدالي لبق لتاريخ أوروبا» (الاستشراق - ص ١١٢).

نستعيد مثل هذه المؤشرات التي انطوى عليها «المشروع النابليوني» في مصر، ونحن نتأمل في عديد من صفحات كتاب طه حسين: «مستقبل الثقافة في مصر»، لنجده يقتلع مصر من تاريخها ويضعها في سياق تاريخ آخر، حتى إذا كان لها في القديم، فإنها انفصلت عنه من قرون طويلة كونت خلالها شخصيتها الثقافية والحضارية على نحو مغاير تماماً، بما يحقق لها انتماءها العربي: ثقافة، وحضارة، ومعطيات تاريخية، وإنها من خلال شخصيتها الثقافية، الحضارية والتاريخية، قد قدمت نفسها في إطار انتمائها العربي، ثقافة وحضارة... وفي إطار انتمائها الإسلامي، شخصية وتفكيراً.

من داخل منظومة الرؤية هذه، طرح طه حسين أمرين خطيرين: - أولهما: القول بتميز الغرب، حضارياً وثقافياً ومعرفياً، بما جعل من أطروحاته، في هذا السياق، أطروحات يتسلط فيها «الآخر» على «الذات المقابلة»، والتي هي موضع المقارنة هنا. وعلى أساس من واقع هذه «الذات» جرى الإقرار بتميز الغرب: عقلياً، وإبداعياً، لذلك رأى فيه «الحالة الموضوعية» التي تبنّاها، ويدعو إلى تبنّيها: أساساً، ومطلقاً، وبالتالي «نموذجاً» تتم الصياغة عليه.

- وثانيهما: خلق ما يطلق عليه أدوارد سعيد «مجالات جغرافية يمكن أن تكون مطلقة الاعتبارية» «الاستشراق - ص ٨٤»، عاملاً على أن يقيمها في العقل الاجتماعي المصري، بحيث أصبحت «أرض الآخر» - في منظوره الجغرافي والتاريخي والحضاري - هي الأرض التي تلتحق بها مصر: جغرافياً «شرق المتوسط»، وعقلياً (الحضارة الإغريقية واليونانية)، أما ثقافياً فإن «الغرب المعاصر» هو أساس بناء الوجود الجديد في ضوء من معطيات ثقافته الحديثة .

هنا يشتق طه حسين «هويته» من منطق مخالف لمنطق واقع المجتمع وكيانه الإنساني، ويقيمها على موقع مختلف، محاولاً أن يؤسس على ما اعتبره «مجالاً جغرافياً» كياناً ثقافياً، وتاريخياً، وحضارياً، جاعلاً من افتراضاته هذه «ترابطات موضوعية» عمل على أن يكسبها (حقيقتها) ولكنها ظلت «موضوعية اختلاقية» بحكم وقوعها خارج المجالين: التاريخي والثقافي للإنسان المصري في المجتمع المصري - الذي اتخذ منه «مجالاً» لنظريته هذه .

لقد أراد طه حسين أن يتمثل ثقافته وثقافة عصره العربي (وإن في إطار مصر الجغرافية) من خلال منظور غربي . . فأعاد النظر في الأفكار المتوارثة، والمداولة، أساساً، في نطاق التراث العربي «عاملاً على زعزعة تلك القناعات الثابتة، فوضع هذا التراث موضع تساؤل وشك . . .

هنا - في هذه الناحية بالذات - تمثل له الغرب (أو عمد هو إلى تمثله) في صورة أكثر كمالاً ووضوحاً، فأراد، بفعلها، أن يجعل من الحقائق الجديدة التي اكتسبها منه، والتي مثلت عنده بعداً معرفياً مغايراً، «حقائق بديلة» للحقائق التاريخية والتراثية والحضارية والعربية، ومن خلال مدخل

أكثر خطورة، يؤدي ويقود إليها جميعاً، وهو المدخل «الجغرافي» - الحضاري».

فطه حسين لم يرد، من خلال مشروعه الثقافي هذا، تقريب «الذات المصرية» من «الذات الغربية» فحسب، بل عمد، أيضاً، إلى محاولة وضعها في إطارها، وكأنه كان يحمل المقترح واضحاً بوجوب إدراك «الذات المصرية»، أو معايتها من خلال «الذات الأوروبية»، ومن منطلق الارتباط بها، وكأن هذه «الذات المصرية» من إنتاج «الذات الغربية». وعلى أساس من هذا الافتراض فإن عليها أن تستوعب «النمط النوعي»، الثقافي والحضاري، لهذه «الذات الغربية».

وهكذا أسقط طه حسين «النظرة الاستشراقية» على «مشروعه الثقافي». ولذلك فإن وصفه بأنه يمثل «ظاهرة استشراقية» في الثقافة العربية الحديثة ينطلق من أكثر من أمر:

- فأولاً: بحكم أخذه عن الاستشراق ممارسته المنهجية، حيث جاءنا في كتابه: «في الشعر الجاهلي» بما عزف به الاستشراق نفسه من «معرفة موضوعية» في النظر إلى الشرق وثقافته. . فعلم الأفكار، وأعاد تشكيلها تحت تأثير هذه «المنهجية».

- وثانياً: فرضه «أوروبا الثقافية» على واقع الثقافة العربية الحديثة عن طريق تقريب معارفها، وتبني هذه المعارف كأصول فكرية ومنهجية فلم تكن دعوته هذه غير عملية تنطوي على محاولة إكساب البعد الثقافي للغرب الثقة العامة به. . إلى جانب ما يتضمنه من محاولة لإعادة تركيب صورة أوروبا في ذهن العربي، والانتقال بها من «أوروبا الاستعمارية» التي عرفها الوطن العربي منذ الحملة النابليونية على مصر، إلى «أوروبا الثقافية والحضارية».

وقد جاءت محاولة «استبدال الوعي» هذه مصاحبة لمرحلة تكريس الوجود الاستعماري الغربي على الأرض العربية، (وهذا من بعض ماسعى إليه الاستشراق).

- وثالثاً: التجزئة التاريخي، والجغرافي، والحضاري لواقع الأمة العربية. إن عملية عزل مصر، التي شدد عليها طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» لم تكن «فكرة استشراقية» وحسب، بل هي، أيضاً، فكرة تميل، بشكل حتمي، إلى «المشروع الاستعماري» الذي كان يمهّد الطريق، بعله على أكثر من مستوى، إلى مثل هذه التجزئة، وكانت الثقافة، كما كان الفكر والتاريخ من «مجالات» هذا العمل الذي أريد له أن يعزز مافعلته الجيوش - جيوشه الاستعمارية - في مرحلة سابقة على ذلك، أو مصاحبة له، «كما كان الأمر مع الغزوة النابليونية لمصر». إلى جانب هذا، فإن تصوره طه حسين للبناء العقلي والإنساني في مجتمعه كان يتم منظوراً إليه من إمكانية «البناء الغربية»، فخلاصنا من التخلف هو «خلاص غربي»، وكذلك تقدمنا «تقدم غربي» - أي أنه مجتمع وظائفه «وظائف أدائية» لنظريات وأفكار.

- وبهذه الطريقة، وكما فعل الاستشراق تماماً، ربط الانسان الشرقي (المصري على وجه التحديد) إلى أفكار ومسميات غربية أراد لها أن تشكل المنظومة الأساسية لفكره..

- وبهذه الطريقة أيضاً جعل من الشرق «عنصراً محكوماً»، فكرياً واستراتيجياً، من الغرب، إلى جانب «الحكم المباشر» الذي هو السلطة الاستعمارية. وكان ذلك بدعوى الرغبة في «لا انفصال» مجتمعه (المصري تحديداً) عن هذه المراكز المتقدمة والمتحضرة التي تمثلها، تاريخياً، «الحضارة المتوسطية» المنحدرة من الإغريق واليونان، والتي

تنعكس في الحاضر من خلال الحضارة الغربية الحديثة وثقافتها (الفرنسية على وجه التخصيص). وقد وجد هذا مسوغاً له لتبني الأفكار والنظريات الغربية، والأخذ بمعطياتها، الفكرية والأدبية، أخذ من تشبع بها إلى حدّ الازدراء لما عداها. لذلك نجده وقد عاين نفسه (أعني ذاته، الثقافية والحضارية) وموضوعات دراساته من خلال «الآخر» (الذي هو الغرب هنا). ، فكان دائم الإقامة، فكراً وعقلياً، في هذا الغرب وثقافته، حتى لنحسبه هو «الإرادة الثقافية» الأقوى له.

وبهذا المنحى نرى طه حسين كمن كان يصنع «مجتمعاً سياسياً»، بالمعنى الذي حدده «غرامشي» لهذا المجتمع، حيث كان «ينفذ» إلى عالم من عوالم المجتمع المدني «كالبينة الجامعية، ويشبعه بدلالات ذات أهمية مباشرة بالنسبة له. / انظر: الاستشراق - ص ٤٥ / . .

إن الترابط بين العنصر السياسي والعنصر الفكري قام، منذ البداية، في تفكير طه حسين. . وظل كذلك حتى الآخر، فقد نهض من / في بيئة سياسية. . وكتابات الأولى وجهتها بيئة سياسية (تتمثل، أكثر ما تتمثل في أحمد لطفي السيد، الذي مثل «الفكر الليبرالي» خير تمثيل إبان تلك الفترة المبكرة من حياة الفكر الحديث، حيث كان يتلمس، في الفكر الليبرالي الأوروبي، وبخاصة الفرنسي، صياغة ملائمة للنهضة المصرية الحديثة». / أحمد بوحسن - الخطاب النقدي - ص ٢٧ / . وقد اتخذ طه حسين من لطفي السيد نموذجاً لنفسه، يقيس عليه المثال الأعلى لطموحه إلى المثال العليا في الحياة، (وقد أعرب عن ذلك صراحة في كلمته عن «محمد حسين هيكل» في الكتاب الذي أشرف على إعداده أحمد لطفي السيد. . .).

فإذا ما أخذنا أنفسنا بمنطلقات كهذه، فإننا يمكن أن ندرس طه حسين على أساس من هذه العلاقة التي نراها بين «مشروعه الثقافي» و«المجتمع

السياسي»، بالمعنى والمفهوم اللذين أراد له أن يكون بهما . . وقد انطلق في ذلك، أول ما انطلق، من أساس فكري يقوم على تعبئة «العقل المخاطب» بما يضاد الذاكرة التاريخية له (وقد تمثل هذا في كتابه : «في الشعر الجاهلي» - ١٩٢٦)، ليعمد، بعد ذلك إلى ما يمكن أن ندعوه «عملية استبدال» للواقع التاريخي، وذلك بـ«إلغاء» الحقيقة ومحاولة «الاستعاضة» عنها بحقائق بديلة تتبنى مفهومات فكرية وتاريخية وحضارية وجغرافية لا يمكن تجريدتها من «بعدها السياسي» (كما تمثل ذلك في كتابه : «مستقبل الثقافة في مصر» - ١٩٣٨)، ناقلاً إلى مجتمعه ما يمس قضاياها مساً مباشراً «الثقافة والتعليم، بالدرجة الأساس».

فالحلظة التاريخية - الحضارية التي بدأ منها طه حسين توجيهه هذا، في ما كان له من «مشروع ثقافي» فيها، يمكن أن ندعوها «الحلظة الحرجة» في التاريخ العربي الحديث» وهي لحظة انفصال الأمة العربية عن جسم التخلف العثماني، ومحاولتها العمل لبدء «كيانيتها التاريخية، الجديدة التي كان قلق التشكل فيها يدعوها إلى العودة إلى الذات (التراث الثقافي والحضاري)، وإلى تأكيد خصوصيتها (من خلال هويتها الانسانية والحضارية)، وهي الفترة ذاتها التي برزت فيها «الحركة الاستعمارية» كعامل مقاومة لمثل هذا التوجه الذي انصب أساساً على تأكيد واقع التجزئة وتعميقه، وعلى تدريس واقع التبعية (من خلال الثقافة والفكر).

لقد عملت «الثقافة الغربية»، بوجهها هذا، على انتهاك مثل هذه الحقيقة التاريخية للوجود الثقافي العربي الذي كان يتشكل من صورة إجمالية أساسها «التراث العربي»، بينما يقوم تطلعها على العمل على إرساء دعامة الحياة الجديدة القائمة على هذا الأساس التراثي بذاته، مع تشرب من معطيات الحداثة السائدة في «عصر المعرفة» هذا.

وقد دخل طه حسين إلى مجتمعه من باب المعرفة هذا، عاملاً على أن يكون تفاعله الانساني والثقافي الكبير، في محيط حياته ذاتها، من خلال هذا «المعطي الأوروبي» في التفكير والنظر، فلم يكن انضواء طه حسين تحت هذه الثقافة الأوروبية من خلال «منهجيتها» وحدها، بل ومن خلال فروض هذه المنهجية، التي هي «فروض فكرية»، موقفية بمعنى من المعاني، وسياسية بالمعنى الآخر - الذي لم يفصح عنه، وإن كان صعباً تجاهله أو الاغضاء عنه .

إن انسحاب طه حسين إلى مثل هذا الموقف كان «انسحاب وعي» منه لحقيقة مايفعل، خصوصاً حين وجدناه يؤكد على أهمية الثقافة الغربية التي لم تكن لتعبّر - من خلال ما جاء به منها الفكر الاستشراقي - إلا عن تلك «القوة الاستعمارية» ذات المصالح في هذا الوطن العربي، وقد أخذ هذه الثقافة بمعزل عن «الوجه الاستعماري» للغرب، ذاهباً إلى أن الثقافة لايعنيها مثل هذا «الوجه» . . (فهل كان ذلك «انكار تمويه» منه، أم أنه بناء على «فكره الليبرالي»؟) .

وبهذا يكون طه حسين قد رسم ملامح مرحلة كان هو أحد بناتها وشهودها، بنفس الوقت الذي رسم فيه ملامح جيله الثقافي :

- فالمرحلة تحددت، أكثر ماتحددت، بالاتجاه الليبرالي الذي كان من أبرز خصائص ذلك التاريخ الذي أطلع عليه هو وجيله، ومن خلال المرحلة وماسادها من فكر وتفكير، أسهما في صياغة تفكير هذا الجيل .
- وإذا كانت الحقبة التي برز فيها هذا الجيل - جيل الحرب العالمية الأولى - حيث الخروج من دائرة «الاستبداد الشرقي» والدخول في الصراع مع «الغرب الاستعماري» الذي دخل المنطقة بجميع أسلحته . . العسكرية . . والاستعمارية . . والثقافية . . أقول: إذا كانت هذه

الحقبة قد طرحت أسئلة اعتبرتها أساسية ، لاتصالها بالإنسان الغربي وبتلك الحقبة من تاريخه «من هو» وما موقفه من الحياة والحضارة؟ وماذا يستطيع أن يفعل للتعبير عن معنى وجوده؟ صدقي إسماعيل - المؤلفات الكاملة - المجلد الأول - ص ٣١ / فإن تساؤلات طه حسين و«جيله المصري» قد تبنت منطلقاً آخر كان لها فيه منحاهما المتأثر بالتجربة الفكرية الغربية (الليبرالية) في هذا المجال .

غير أن لهذا التوجه انعكاسه الآخر، المغاير له تماماً، الذي حصل على مستوى الثقافة والفكر العربيين :

- فمجيء طه حسين إلى الحياة الثقافية العربية بمثل هذه النزوعات ، وهذا التفكير كان له أن وضع «الذات العربية» على المستوى الثقافي والحضاري ، في محورين أساسيين من «إعادة إنتاج» هذه الذات :

- فقد كانت هناك عملية إعادة إنتاج الذات العربية من خلال تراثها، والتي تركزت، أكثر ماتركزت، من خلال ذلك الامتداد الفكري ذي الرؤية العربية، والذي مثل التواصل مع فكر النهضةيين الأوائل في القرن الماضي .

- وهناك «إنتاج الذات» من خلال «الآخر» (الغرب الأوروبي) الذي كان يمتلك الحيوية في مجتمع حديث . وقد وجد الاستعمار الغربي في المراكز الثقافية (التي عمل على تأسيسها، أو التأسيس عليها) في البلدان المستعمرة فضاء آخر يضاعف فضاء الاحتلال ويكرسه . فليس هناك ما هو أهم عند هذا الاستعمار من إخضاع المستعمر للغته وأفكاره وقوانينه .

ماذا يبقى من طه حسين؟

هل هي «ميّزة» للفكر العربي أنه، ومنذ مطالع نهضته الحديثة، كان يتوجه إلى الماضي بسؤال الحاضر؟ وهل يعني هذا التوجه، فيما يعني، أن الماضي، ماضينا نحن، متحكم بنا إلى الحد الذي لانملك معه الخطوة خطوة متقدمة من غير «استشارته» أو البدء إلا من خلاله؟

تكاد هذه الرؤية أن تندرج في كل ماكان من سارفي هذا السبيل، فقد بدأت في الفكر العربي الذي نعتبره «إصلاحياً»، ورافقت ماكان من هذا الفكر «راديكالياً» أو «ثورياً»، وتداخلت بما افترعناه من «أيديولوجيات قومية» وكان «طريق التغيير» لا يمر إلا عبر هذا الماضي، الأمر الذي جعل من هذا يمثل حالة مزدوجة من التعلق به والانسحاب إليه «أيديولوجية مضادة» بيد السلفية، تحتكم إليها، وتحاكم عصرنا بها ومن خلالها، الأمر الذي جعل من مشروع «ثورتنا الثقافية» مشروعاً محاصراً باعتبارات وضعتها هي لنفسها. . فلا تحررت منها، ولا اتخذها «عاملاً مساعداً» على رسم ماكانت تصبو إلى تأكيده من دلالات في واقع جديد يتشكل.

ملاحظة كهذه تفرض نفسها في إطار الحديث عن طه حسين (بعد أحد عشر عاماً على رحيله) بعد قراءته «قراءة ثانية» ومراجعة أساسيات فكره

وتصوراته ورؤاه، لتبين مدى مساهمتها في تشكيل «بنية جديدة» لواقع جديد، خصوصاً وأنه كان قد بدا بما ميزه في إطار هذه «المساهمة» على مستوى النشاط الفكري، والرؤية التطبيقية لهذا الفكر في حركة الواقع (فيما يتصل بالتعليم بوجه خاص، وطرح الديمقراطية كأسلوب بديل لسواه)، باحثاً عن مفلاصل الحركة في «بناء الواقع» من خلال «المواجهة العقلية» لعوامل التردّي فيه.

ويمكن لنا هنا أن نلخص، وبإيجاز المراحل التي مر بها فكر طه حسين حتى بلغ «ثورته» هذه. . . والتي نراها متمثلة في :

١ - مواجهة الواقع الذهني ببصيرة المخالفة، لا المؤالفة. . فكان الضد لنزعة «المشكلة».

٢ - التفتح على الرؤية المنهجية الديكارتية، وتأثيرات آراء بعض المستشرقين (مرجليوث، بوجه خاص)، مما زرع بذور تبصر جديد لمعطيات ثابتة المعنى، مستقرة الأبعاد في ذهنية القرون.

٣ - ثم الانتقال بهذا كله إلى «مرحلة التعبير» عنه، وذلك برسم ملامح بارزة لحركته في أول تطبيق له انعكس على صفحات كتابه: «في الشعر الجاهلي» . .

إذن، كان «الوعي» من طه حسين يتحرك نحوه، ويستهدف تغيير الواقع عن طريق «بناء الفكر» بناء سليماً قائماً على «رؤية منهجية» تنسف ماترسب من «المسلمات التاريخية»، مكسبة إياه «تكويناً جديداً» يقوم على التفحص والمحاكمة. . . على الرؤية والتحليل. . . وهو حوار لن يتحقق دون «تكوين منهجي» وهذا ما أدركه طه حسين ووعاه منذ أن بدأ «فحاول إخراج الظواهر الأدبية من إطار تاريخيتها ووضعها في إطار منظور منهجي

يقوم على اعتبارها «انجازات عقلية» لها سياقات الابداعية والواقعية التي تلزم النظر إليها نظرة تجردها من كل صفة خارجة عن سياقاتها هذه .

وإذ ننظر اليوم إلى طه حسين في إطار تاريخته ، ونقرأه في ضوء ما لمرحلتنا من معطيات ، نجد الحرص الكبير من هذا «المفكر» ، الذي انتهى كلية إلى الأدب والتاريخ ، يتوزع على محورين أساسيين قل أن اجتماعا عند نظرائه في ثقافتنا العربية الحديثة ، إبان مرحلته ومسبقها . . وهما : تأكيده الفكرة . . ومناقشة معطيات الفكر . أي أنه لم يكن ليكتفي بعملية «بث الأفكار» والحرص على ذيوها وانتشارها كنمط للتفكير الحديث ، كما رآه ، وبداية للدخول في عصر المنهجية الفكرية وحادثة الموقف والرؤية . بل كان يعمد إلى «القراءة» المستندة إلى رؤية منهجية ، وموقف فيه من وضوح القصد ما يمكن أن نعهده البداية الفعلية للتفكير الحديث ، بإخراجه من إطار تاريخته التي كادت تصل به إلى «العزلة» ، وكان الهدف الذي كان يشد طه حسين إليه هو محاولة تشكيل بنية ، ثقافية وفكرية ، ترتبط مفاهيمها الأساسية بمرحلة من مراحل الوعي الإنساني ثم قياس مدى التطور فيها بمقياس عقلي صرف ، قائم على التوازن (أو الموازنة) بين ما هو عقلي وما هو في مستوى التحقيق لانجازات هذا العقل ومعطياته الأساسية ،

لقد أدرك طه حسين مدى التخلف في الفكر والواقع معاً . . وكانت رؤيته هذه «رؤية منهجية» في أساسها ، ترى «شكل الغد» ، أو «صيغته» متمثلة فيها ، ووجد في هذه «الرؤية» عاملاً محركاً لبناء فكري سليم لا يقوم على المسلمات بقدر ما يعمد إلى محاكمتها . . نافضاً عن ذهنه الكثير من الاعتبارات التي كانت ترقد بثقلها التاريخي على التفكير ، حابسة إياه في حلقة ضيقة جعلت الماضي ، بجميع اعتباراته التاريخية ، سائداً في الحاضر ، دون أية عملية تفاعل جدي حي بينهما .

من هنا لم يكن، البحث ليتخطى اللقاء بالعالم من خارجه، ولا النظر
ينفذ إلى ما فيه من حركة جوهرية. أما الوعي فكان يتحرك ضمن مسافات
محسوبة.

وجاء طه حسين ليكون «مشروع الثورة» على هذا كله.

- ولا اجتزأت رؤيته الأشكال والصراعات من سياقاتها. . ولا كان «شكلياً»
في تعامله مع هذه السياقات.

- ولا توقف منه الوعي عند حدود معرفية تكتفي بالتوكيد، فلا تتجاوزه إلى
توليد بعض «القوانين المعيارية» التي كان لها بليغ الأثر - بما أحدثته من
تفاعلات، إن معها أو ضدها - في تشكيل البنية الجديدة لفكرنا العربي،
والتي كان لتلك الجزة التي أحدثها طه حسين في منهجية الرؤية والنظر
إلى «الشعر الجاهلي» أثرها البالغ في وضع «ثورته المنهجية» في إطار من
الحقائق الملموسة، تجاوزاً كل طابع مجرد لها.

لقد وضع العديد من «المسلمات التاريخية» موضع تساؤل حاد
وصارخ، وما جعل لتساؤله هذا أهميته وصداه هو أنه كان «تساؤلاً منهجياً»
يقوم على احتكام إلى العقل، وتأكيد لدور هذا العقل في حركة الفكر
والواقع.

وإذا كان طه حسين أول ما هدم «برج الأساطير» فإنه، من بعد، كان
قد استسلم لشكلياتها، بهذا القدر أو ذاك، فلم يكمل مابدأه على نحو
مابدأ. . وكان «حصار الواقع» الذي واجهه بإرهابية وأتوقراطية مرعبة قد
ضيق حدود رؤيته المنهجية الشائرة. حاصراً إياه في دائرة ضيقة لم تكن
لتخرج عليها إلا ببعض من إشارات ورموز لا تتعدى فيها كونها «رؤية مكبلة»
بمجموعة من الاعتبارات التي أخضعت طه حسين وفكره لمنطقها، بعد أن
كان قد بدأ من الرفض لها والثورة عليها والإقرار بقصورها.

وهكذا «وقف» به المسار الذي بدأه متمثلاً في «حركة نهوض» تعتمد العقل والرؤية . . فكان له أن حاصر منطق التطور داخله، ووجدت «فكرة التغيير» عنده ما يحد من جموحها، بل وما يوقفها أو يتوقف بها عند حدود منهجية لم يكن لها، من بعد، أي دور ممكن وقابل للتحقيق أو التفاعل مع حركات التجديد اللاحقة التي بدأت بثورات فعلية، مستندة إلى نظرة علمية للواقع، وثورة في الرؤية لقيم الثقافة ومعطيات الفكر. فكانت ثورة في الوعي، وتأسيساً لوعي جديد بتميز اليوم باستمراريته المتطورة، بينما يمثل طه حسين فيه «حركة متراجعة» لاستخلص لعملها من الدلالات إلا ما كان تاريخياً، أو واقعاً في سياقات هذا التاريخ.

واليوم، حين نعلم إلى تمييز تلك الجوانب المتعددة في فكر طه حسين فإننا نجد لها تتمركز حول ما يمكن أن ندعوه «ثورة العقل» في فكرنا العربي الحديث، وهي ثورة انطلقت من «الجزئي» وتأسست عليه، «ثورة محدودة» وكانت عملية محاصرتها سهلة، وإذا كان لها من أثر في التحولات التي أعقبتها فهو أثر «المنبه» و«الحافز» وليس «المؤسس» أو «الباني» .

وأجد من التعسف بمكان البحث في فكر طه حسين عن موقف جدلي علمي تاريخي . . فهو بعيد عن مضمونات قراءة كهذه، تتعمق واقعها، كما تتعمق التاريخ في حركته وتشكل بنياته الأساسية. لهذا لا يمكن لنا أن نستخلص مما كتب المضمون الذي نبحث عنه في إطارها ندعوه «ثورة عقلية»، لها أفقها الثقافي. فهو لا يقف خارج حقيقته، ولا يتجاوز في شيء هذه الحقيقة التي كانت مرهونة بمستوى من الوعي أو التفكير يدخلان في سياق مرحلة، وفي الوقت نفسه فإنهما لا يدخلان في «المؤلفه»، ولا يقومان، في الأساس والمنطق. على شيء من «المشكلة» بينهما و«الآخر» الذي يتشكل من مضمون هونتاج تكوين ثقافي مستمد من السقوط في

اعتبارات «المقدس» ، الخاضع لرؤية لاتقوم على شيء من التعديل لما كان من مسار، والتي يفرضها انحدار تاريخي لا يأخذ بالاعتبار، ولا يستخلص أية خطوط للتوازن بين أبنية «ماهو ثقافي» وأبنية «التكوينات الجديدة» للحياة والعقل .

لذا يمكن القول ، استخلاصاً ، بأن طه حسين لم يمض في عملية تشكيل بنية لثقافة عربية جديدة ، ولا وضع صيغة شاملة لتقدم يقيم التوازن بين فكر الحاضر ، وإنجاز الماضي ، ورؤيا المستقبل .

وإذا كانت كل «ثورة» تقاس بمستقبليتها ، فإن «ثورة» طه حسين لم تتخذ شكل الحياة ولا صيغتها ، ولا سعت نحو شيء من التحذير لرؤيتها ، ولا لطرق التقويم وأساليبه التي كانت قد بدأت بها .

فإذا كان ، في بداياته ، قد اتخذ مسارات «طريقة» من شأنها أن تهز العديد من التكوينات الجامدة ، فإن «منهجيته» تلك قد افتقرت صيغتها الجدلية ، لتقع في تناقضات ثانوية أغرقتها وأوقفت حركة النمو فيها . وكان الفكر السلفي (اليميني) ذكياً وبارعاً في الانتقال بتلك «الثورة» إلى الموقع الذي حاصرها فيه .

من هنا كان «الارتداد» مسألة واردة في فكر طه حسين وفي حياته . وليس تخليه عن أطروحاته في «الشعر الجاهلي» سوى بداية العودة إلى «تقاليد» الثورة المضادة التي واجهت أفكاره تلك بردة فعل تشبثت بالكثير من النزعات السلفية فكان أن انتهى الأمر بطه حسين إلى صياغة تصورات صياغات جديدة ، وتعديل رؤيته ، بما جعل منه فكراً محدود التأثير ، محدود الامتداد ، بحكم محدودية الحركة فيه .

وهكذا . عاد إلى «القيم المتداولة» ، دون أن يخلق احساساً بأية ضرورة تاريخية لما يقول :

ولعل هذا هو ما يمدنا، أكثر من سواء، بمفهوم واضح لـ «ثورة الفكر»
في واقع يحتاج إلى الكثير من رؤى العقل، ويستشعر الحاجة إلى عملية
مواجهة فعلية لجميع أنماط التخلف.

المحتويات

أما قبل	٥
مشروع طه حسين الثقافي	١١
عصر الانتقال الحضاري	١٩
تثقيف الذاكرة الجماعية	٢٩
سيرة عصر بدأ بالثورة	٣٧
أسير فكرة الخروج	٤٧
استعادة اللحظة الغائبة	٥٧
جيل إنتاج الثقافة الحديثة	٦٣
التمزق بين وعين	٧١
العقل والحرية والاستلاب	٧٩
طه حسين والفعالية الثقافية في مجتمع النهضة	٨٧
الحرية والمجتمع والأدب	٩٥
الخصوصية القومية والحرية الفكرية	١٠٧
الحرية ومفهوم العلاقة بالآخر	١١٥
النزوع إلى الغرب	١٢٥
هل كان طه حسين ظاهرة استشراقية؟	١٣٣
ماذا يبقى من طه حسين؟	١٤٣

الثقافة والحرية

... اخضع طه حسين فكره التاريخي لاعتبارات جديدة منحها من القوة ماأتاح له أن يتخلى عن «لغة الملاينة» التي كانت تعالج بها قضايا الفكر والتاريخ . . بل لقد عمد إلى البدء بأكثرها حساسية . . وأشدها عنفاً في مواجهة التيار التقليدي في الحياة والفكر . فاستعاد الكثير من الأفكار (ديكارت في منهجه ، ومن جليوت في دراسته الشعر الجاهلي) وأقحمها في صلب مآثراته من تاريخ يحمل الناس من حوله نظرة تقديس له . . واضعاً ذلك كله في سياق حركة كان يؤمل لها أن تستمر وتمتد ليكون عطاؤها غزيراً ، أن يفرض في مرحلة تاريخية باعتباره استجماًعاً لفكر عصر وتفكير عصر ، وهو الأساس والمنطلق لثورة العقل على واقع الجمود والتسليم . . فكان ما أعطاه قد مثل «مضموناً مختلفاً» يخرج في كثير مما فيه . عن ذلك «الإثلاف» الذي ساد الثقافة العربية حتى مرحلته . . وقد تضمن من القيم والنظرات ما يؤكّد قدرة العقل العربي على التقديم والتمثيل . بدل الجمود والتسليم .